البحار الوسيم

بيلي بَـدْ

- Author : Herman Melville — ◆ المؤلف: هرمان ملفيل
- Title: The Handsome Sailor — ◆ العنوان : البحار الوسيم
- Translated by: Mostapha Taha Habib — ◆ ترجمة : مصطفى طه حبيب
- Afaq's first edition: 2017 — ◆ طبعة آفاق الأولى 2017
- Cover Design by: Amr El Kafrawy — ◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- Publishing Consultant: Sawsan Bashir — ◆ مستشار النشر: سوسن بشير
- Editor: Tarek Hashim — ◆ المحرر: طارق هاشم

رقم الإيداع:
٢٠١٦ / ٢٢٤١٠
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 071 - 7

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

بيـــلي بَـــدْ

البحـــــار الوسـيـــم

تأليف

هـرمان ملفيـــل

ترجمة وتقديم

مصطفى طه حبيب

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

ملڤيل، هرمان.

هرمان ملڤيل : البحار الوسيم «بيلي بَدْ» ترجمة: مصطفى طه حبيب

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2017

176 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 22410 / 2016

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 071 – 7

1 – الأدباء

2 – ملڤيل، هرمان

المشتركون في هذا الكتاب

المؤلف:

هرمان ملڤيل: ولد في مدينة نيويورك سنة ١٨١٩، وفي سنة ١٨٧٣ التحق بالعمل في سفينة تجارية. وكانت مغامراته بها أساسًا لأشهر كتابين من مؤلفاته، وهما «تيبي» و«موبي دك».

وقد كانت له مغامرات في غير البحار حين عمل في بعض الجزر في المحيط الهادي. ثم عاد في سنة ١٨٤٤ إلى الولايات المتحدة واستقر فيها وتزوج. والتحق بالعمل في الجمارك، حيث ظل يعمل عدة سنوات. وفي أثناء ذلك انصرف إلى التأليف فوضع عدة كتب قوبلت بالإعراض في حياته، فأظلمت هذه الحياة. وتوفي في سنة ١٨٩١.

ولم تفتح عيون النقاد لقيمته الحقيقية إلا في سنة ١٩١٩ حيث أخذوا يشيدون بمؤلفات هذا العبقري الذي هو من أكبر رجال الأدب في أمريكا، فعرف الجمهور قصصه وأقبلوا عليها لا سيما «موبي دك» و«البحار الوسيم، بيلي بد» و«تيبي» وغيرها من قصص عظيمة.

المترجم وصاحب المقدمة:

الأستاذ مصطفى طه حبيب: تخرج في كلية الآداب «قسم اللغة الإنجليزية» بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٤، وعمل في التدريس والصحافة والترجمة. له عدة مؤلفات منها كتابه عن «شاعر الكون، وليام شيكسبير». ترجم خمس مسرحيات لشيكسبير هي: «هنري السادس» و«زوجات وندسور المرحات» و«هنري الرابع» بقسميها و«هنري الثامن».

U U U

مقدمة

«بيلي بد» هذه القصة التي نقدمها لقراء العربية في هذا الكتاب هي آخر ما خط يراع هرمان ملڤيل «الروائي الأمريكي» (١٨١٩ – ١٨٩١). لقد أعمل فيها قلمه في شيخوخته وتركها مسودات في مكتبه، ولم يكن ليأمل أن يتمها أو أن يجد في نفسه القوة لينتهي منها، فقد كتب في الخامس من ديسمبر سنة ١٨٨٩ لصديقه أرشيبالد ماكميشان: «لقد دخلت في الحلقة الثامنة من عمري و أتيح لي بعد عشرين سنة من العمل المتواصل خارج البيت موظفًا بالجمارك فراغ طليق من كل قيد ولكنه فراغ جاء وعنفوان القوة يتداعى، وفورة الصحة تضمحل، بحكم السن وحكم الطبيعة التي لا ترحم، ومع ذلك فقد كرست ما بقي لي من قوة وهو قليل لأتمم أمورًا بدأتها ولم تنته وما أحسبها تنتهي وفي العمر بقية». من بين هذه الأمور التي بدأها ولم تنته، والتي ما حسبها ستنتهي وفي العمر بقية، هذه القصة عن حياة حارس السارية العليا في سفينة بحرية، فالثابت من أوراق هرمان ملڤيل أنه منذ ثلاثين سنة قبل كتابة هذه الرسالة كان يخطط لقصة يقطر فيها عصارة تجاربه من خلال أنابيق الزمن، ويضمنها تأملاته من فوق السارية العليا للسفينة حيث كان يعمل في شبابه. ومنذ ذلك الوقت وهو

يعمل في إنتاجها مستغلًّا كل فراغ يتاح له، ولكن زحمة الحياة وتصاريف الأيام صرفته عن غايته سنين عددا. فلما هدأ الزحام وتثاقل بفعل وطأة العمل استقر في عقر بيته متقاعدًا، ومن ثم وجد الهدوء والوقت ليعمل في إتمام قصة العمر. والحق أنه أقبل على العمل فيها بكل ما بقي له من فتوة العقل، فأخذ يقرأ كل ما وقع له من كتب شراء واستعارة ليستنير في النواحي التي أخذ نفسه بتصويرها في هذه القصة الفريدة.

والقصة كما رسمها في خياله كانت جماع عدة حوادث واقعية، منها ما حدث له شخصيًّا على ظهر السفينة «الولايات المتحدة» (١٨٤٣–١٨٤٤)، ومنها ما حدث لابن خاله جيرت جانسيفورت عندما كان ضابطًا أول فوق ظهر السفينة سومرز في سنة ١٨٤٢؛ فقد حدث فوق ظهر السفينة سومرز تمرد مفجع كان محوره ابن خاله. من خيوط هذه الأحداث نسج ملفيل قصة «بيلي بد»، وليفصل وقائعها عكف على قراءة تاريخ البحرية البريطانية على أيام نلسون، وحقق كل ما اجتمع له من وثائق وروايات عن ثورة السفينة سومرز. ومما قرأ، واستقر في وعيه من تجارب حياته فوق السفن أخذ يكتب سطور قصته ثم يمحو ما كتب لعدم اقتناعه به أو رضائه عنه، وفي هذا التردد بين المحو والإثبات كتب رسالته التي قدر فيها أن هذه القصة لن تنتهي وفي العمر بقية.

ومع ذلك فقد ظل يُعمل فيها قلمه ويجد في إنهائها خلال الأشهر الثلاثة التي سبقت وفاته وربما كان إحساسه بقرب منيته حافزًا له على التعجيل في مراجعتها، ولكن هذا التعجيل مع ذلك لم يكن بالقدر الذي يساعف بإظهار الكتاب قبل وفاته فانتقل إلى الدار الآخرة بعد منتصف

ليلة ٢٨ من سبتمبر سنة ١٨٩١ ولا تزال أصول الكتاب على مكتبه بخط يده وإلى جانبها شعار ملڤيل «كن أمينًا لأحلام شبابك».

أجل، لقد كان ملڤيل أمينًا لأحلام شبابه، فحتى النفس الأخير ظل يكتب ذكريات أيامه الأولى وما صادفه فيها من مخاطر وما اعتمل في صدره من آمال. وحين انتهى من آخر فقرة في هذه الذكريات أسلم النفس الأخير موفيًا بعهده لأحلام الصبا.

ولد هرمان ملڤيل قبيل منتصف ليلة أول أغسطس سنة ١٨١٩ بمدينة نيويورك في رقم ٦ بيرل ستريت وعمد تحت اسم هرمان وكانت أمه الابنة الوحيدة لجنرال بيتر جانسيفورت من رجال الثورة الأمريكية العتاة، وقد اشتهر بدفاعه عن حصن ستانويكس، وكان أبوه الابن الثاني لتوماس ملڤيل أحد المحاربين في الثورة الأمريكية من جماعة الموهوك الذين قاموا بتفريغ شحنات الشاي الإنجليزية في ميناء بوسطن. وترجع أصوله من ناحية أبيه إلى أصل إسكتلندي، ومن ناحية أمه إلى أصل هولندي.

وكان أبوه «آلان» من المشتغلين بالتجارة وقد راجت تجارته فانتقل بأسرته إلى الميناء حيث عاش عيشة بذخ وثراء ولكن التجارة لم تلبث أن كسدت وتراكمت عليه الديون فاضطر أن يعود إلى «ألباني» بأولاده الأربعة وبناته الأربع ليجد عملًا يقيم أوده وأود أولاده ويعين على إدخال الولدين الكبيرين جانسيفورت وملڤيل في الدراسة بأكاديمية ألباني، ولكن ما مرت سنة على هذه العودة إلى «ألباني» حتى مات الأب مخلفًا أولاده في حالة تعسة وضنك مالي شديد اضطرت معه الأم إلى إخراجهما من المدرسة وإلحاقهما بعمل يتعيشان منه، أما جانسيفورت فقد قام على

مصنع القبعات الذي كان يديره أبوه وألحق هرمان بوظيفة كتابية صغيرة في بنك نيويورك المركزي لم يطل مقامه بها أكثر من سنتين، ثم انتقل إلى مزرعة عمه ليعاونه على أعمالها، ومن ثم عاد إلى ألباني ليشتغل كاتبًا في مصنع أخيه الذي حمل عبء رب الأسرة ومسئولياتها وأصبحت الأسرة كلها تعتمد على ما يدره مصنعه من أرباح.

وفي سنة ١٨٣٥ استأنف هرمان دراسته رغبة في الحصول على وظيفة مدرس فالتحق بمدرسة ألباني وانضم إلى عضوية جمعية الشبان وعضوية جمعية فيلولوجوس للبحث والمناظرة، وكانت أول وظيفة للتدريس تهيأت له في مدرسة حي ناء اشتغل بها ثلاثة أشهر ثم غادرها فجأة وبصورة عنيفة وعاد أدراجه إلى ألباني ليجد أخاه قد ساءت أحواله المالية واضطر إلى نقل الأسرة إلى قرية مجاورة توفيرًا للنفقات. ولم يجد هرمان بدًّا من البحث عن عمل فالتحق بكلية الهندسة والمساحة ليعد نفسه لوظيفة في شركة إنشاء قناة إيري، ولما لم يتحقق أمله عاونه أخوه على التطوع في إحدى السفن التجارية المسماة سانت لورانس ليقوم برحلة خلال الصيف إلى ليفربول في سنة ١٨٣٩، ولكن تجاربه الأولى في البحر لم تكن مجزية ولا ممتعة، ومن ثم لم يعاود السفر، وأتاح له الحظ عند عودته مدرسة جديدة في جرين بوش عمل بها فترة ما لم تلبث بعدها أن أغلقت أبوابها دون أن توفيه أجوره فهاجر مع صديق إلى ألينوي سعيًا وراء عمل مجز ولكن المقام لم يطل به مما ينبئ بأنه لقي خيبة أمل في هذه الرحلة.

وفي هذه الأثناء كان أسطول صيد الحيتان في إنجلترا الجديدة (نيو

إنجلاند) قد بلغ قمة انتعاشه الصناعي، وكان الازدياد المستمر في عدد سفنه يستدعي دائمًا توفير الأيدي العاملة من البحارة ذوي الدربة وغيرهم من المستجدين. وقد نهز هرمان هذه الفرصة للخروج من اليأس المخيم والتحق بإحدى سفن صيد الحيتان الجديدة المسماة أكوشنت Acushnet وقبض مقدمًا على حساب ما سيؤديه من خدمات ٨٤ دولارًا. وفي ٣ من يناير سنة ١٨٤١ أبحر مع خمسة وعشرين بحارًا آخرين تحت إمرة القبطان فالنتين بيز إلى المحيط الهادي في رحلة لصيد الحيتان. وفي هذه الرحلة عاش حياة البحر بما فيها من مغامرات واختلط بأشتات البحارة وعرف طبائعهم واحتك بقباطنة السفن وحذق وسائلهم، وفي هذه السفينة ثار على المعاملة القاسية التي يلقاها البحارة من أصحاب السفن الذين يجعلون للربح المقام الأول، أما الزمن وأما البشرية فليس لهما حساب عندهم. ومن هذه السفينة فر مع صديق له ولجأ إلى إحدى جزر المحيط، وهناك وقع أسيرًا في أيدي بعض القبائل آكلة اللحوم حيث عاش أيامًا طويلة شهد فيها غرائب الحياة وعجائبها وسط هؤلاء القوم. ولما سئم حياته في هذه المنطقة أتاح له القدر وسيلة للخلاص على ظهر سفينة عائدة إلى نيويورك من أستراليا.

وخلال السنوات التي تلت ذلك ظل ملڤيل يعمل في البحر متنقلًا من سفينة إلى أخرى ومن منطقة إلى أخرى فعاش في تاهيتي وفي جزائر هاواي. ولما ملّ حياة سفن الصيد ومتاعبها التحق بحارًا في إحدى سفن الأسطول الأمريكي «الفرقاطة الولايات المتحدة» حيث قضى عامًا على ظهرها يجوب البحار ويسترجع المشاهد التي مرت به في مغامراته

السابقة، وفي أكتوبر سنة ١٨٤٤ عاد إلى بوسطن وقد امتلأت جعبته بقصص متعددة الألوان لمغامرات البحار وصور شتى لحيوات الناس في هذه الأصقاع فأخذ يرويها على أهله وأصدقائه ويستهوي أسماعهم بالغريب والطريف منها.

عاد هرمان ملڤيل إلى بوسطن ليجد جانسيفورت قد أصبح شخصية بارزة في الميدان السياسي له وزنه الخطابي في دوائر الديمقراطيين، ووجده من أشد أنصار الرئيس بولك في المعركة الانتخابية ووجد أسرته تعيش منتعشة في ظل ما حققه جانسيفورت من أمجاد. وفي هذا الجو المليء بالآمال الحلوة جلس هرمان يروي قصصه ومغامراته التي خلبت ألباب سامعيه ولا سيما قصته في نوادي تيپي Typee، وقد أشار عليه بعض سامعيه أن يكتب هذه القصص وينشرها على الناس.

واستجابة لهذه الرغبة جلس هرمان إلى المدفأة في بيت أمه «ماري» المكافحة التي كافحت القدر من أجل أبنائها، وأخذ يكتب قصة تيپي Typee. وفي ربيع ١٨٤٥ انتهى منها وأصبحت معدة للنشر ولكن دار هاربر للنشر رفضتها متعللة بأنه من المستحيل أن تكون رواية لحدث حقيقي، ومن ثم فليس لها قيمة أصلية.. على أن هذا الرفض لم يحل دون نشر القصة، فقد حملها معه أخوه جانسيفورت حين عين سكرتيرًا للمفوضية الأمريكية في لندن على أثر انتخاب بولك للرياسة إلى لندن، وهناك قبل مَرِي Murray نشرها ودفع لهرمان حقوق التأليف وتلا نشرها في لندن نشر طبعة أخرى في أمريكا تعاقد عليها مع هرمان الناشر پوتنام. وهكذا أصبح هرمان ملڤيل بين يوم وليلة كاتبًا محترفًا.

والحق أنه ما من شيء في حياة هرمان كان يوحي بأنه سيكون كاتبًا قصصيًّا ومن طليعة كتاب القصة في أمريكا، ومع ذلك فإن تجارب الحياة صقلته وأمدته بفيض زاخر من الحكايات والصور ملأته حيوية من أقوى ما يمكن أن تملأ بها النفوس؛ حيوية فريدة جعلته يصيح «وددت لو أن بركان فيزوف استحال إلى مداد لأكتب به كل هذا الذي كان يجيش في صدري» وعلى أن يقول في بعض رسائله الخاصة: «إني محتاج إلى خمسين شابًّا يكتبون ويكتبون كل هذا الذي أريد أن أملي».

ما من شك أن هذه التجارب التي مر بها هرمان ملفيل بحارًا، وكاتبًا، ومغامرًا، وصائدًا للحيتان، وفارًّا من سفينته ونزيلًا بين القبائل المتوحية، ومتنقلًا بين جزر المحيط، قد ملأت حسه بأفكار وصور قلما تتوافر لإنسان مهما تكن موهبته، فلما تزاحمت الصور وامتلأ الرأس بالأفكار كان لا بد أن تجد لها متنفسًا لتخرج إلى النور، وقد وجدت هذا المتنفس في تشجيع الأهل والأصدقاء لهرمان على الكتابة، فجلس يملي من خاطره ما ازدحم فيه من شتى الانفعالات ومختلف الأحاسيس- يملي ما تجمع من تجارب وطرائف وصور كلها من وقائع عاشها وأحسها وانفعل بها، فجاء تصويره لها صادقًا قويًّا يفيض بالمشاعر الإنسانية ويلمس كوامن النفس ويكشف عن أسرارها، ولا عجب بعد هذا أن تلقى قصته الأولى Typee من الرواج ما يفوق كل ما كان يتصوره الأمريكيون يومئذ من معنى الرواج وأن يقرأها العامة والخاصة بأعداد لم يسبق لها مثيل في عالم الأدب، وأن يعنى بها الكتاب والمؤلفون ويعلق بعضهم عليها ويكتب عنها ويفاخر بعضهم بأنه قرأها مرات، وفي كل مرة استبان له فيها وجه معجز جديد. هذه القصة

التي نبهت ذكر ملڤيل ورفعت اسمه في الخافقين لم تكن إلا صورة حية لمغامراته في جزيرة وسط المحيط بين أهل تيبي من المتوحشين، هذه المغامرات لم تكن تتميز بشيء من الشذوذ الخارق للعادة ولكنها كانت قبل كل شيء تمتاز بحيوية متدفقة جارفة من شخصية صاحبها.

لقد عاش ملڤيل في القرن التاسع عشر بعد حرب الاستقلال الأمريكية في ظل فورة الحماسة المتدفقة التي شملت كل شيء في حياة هذا الشعب الصاعد الذي عمل بقوة واندفاع وبعزم وإصرار على تثبيت دعائم استقلاله وبناء كيانه على أسس جديدة لا تمت بصلة إلى ماضي أيامه تحت ظل الأجنبي. عاش في جو بناء وفتح مجالات مستحدثة للحياة تدر على الشعب من الدخل ما يوفر له حياة رفيعة مستقرة تسمو به ويسمو بها، حياة، العظمة فيها- كما يقول ملڤيل في روايته «موبي دك»-: «ليست للملك والصولجان وإنما للشعب كله، للعامل العادي الذي يدفع آلته، والزارع البسيط الذي يحصد زرعه، عظمة الديمقراطية التي لا تعرف الملال ولا الكلال». في هذا الجو الطليق، وفي هذه النشوة الجديدة، وفي هذا التحمس القوي للمثالية الروحية، نشأ ملڤيل وعاش أيامه فكان بحق أصدق من يمثل هذه الروح الأمريكية المتحمسة المتدفقة حيوية وعزمًا وإنه ليصور عزم الأمريكيين وثباتهم ومجالدتهم للقدر حين يقول في روايته موبي دك على لسان بطلها اهاب: «أيها الإنسان اجعل الحوت مثلك الأعلى في الحياة وأمطره إعجابًا بعد إعجاب. ترى أتستطيع مثله أن تعيش وسط الثلوج ودمك يجري ساخنًا؟ أو تعيش مثله في الحياة وكأنك لست منها؟ كن أيها الإنسان منتعشًا وسط حر خط الاستواء، دافئًا

في غمرة ثلوج القطب الشمالي. كن كقبة القديس بطرس في جلالها، بل كن كهذا الحوت. عش في فصول السنة كلها، ولك من جسمك حرارة ذاتية لا تتغير بتغيرها».

لقد كان ملڤيل صورة حية لهذا الإصرار وذلك العزم، كان كالطود في ثباته لم تزعزعه الحوادث ولم تصرفه صروف الأيام عما خطه لنفسه، بل سار طريقه ومشى خطواته في عزم وحزم... وقف في وجهه الناشرون وولوا وجوههم عنه، ولكن ذلك لم يصرفه عن الكتابة، ولم يقعد به عن الإنتاج، كان يكتب لنفسه لا للنشر، كان يرضي نزعته الأدبية ويؤدي رسالته وإن حجب الناشرون عنها النور. قال ذات مرة لحميه: «إن رغبتي ملحة في أن أواصل كتابة هذا الضرب من الكتب الذي يقولون إنه فاشل.!! الويل كل الويل لهذا الذي يكتب ليرضي الناشرين ويسعى لجلب الرضا أكثر مما يسعى لإثارة السخط».

كان ميدان القصة الأمريكية بكرًا حين دخله ملڤيل، وكان الكتاب لا يزالون يصارعون الاتباعية الأدبية للغرب ويحاولون جاهدين التخلص من تأثير المثل الأجنبية التي كانت تحتذيها الرواية الأمريكية وتستمد حياتها منها ويعملون على أن يخلقوا لأنفسهم أدبًا يعبر عن شخصيتهم الجديدة ويثبت مكانتهم الأدبية كشعب حر له مثله وله حياته وتجاربه. وبالقوة ذاتها، والحماسة نفسها اللتين عمل بهما الشعب على تثبيت استقلاله السياسي وكيانه الإنساني انطلق جينز كوبر واضع حجر الأساس في الاستقلال الأدبي الأمريكي يجاهد لخلق الرواية الأمريكية ونبذ المثل الإنجليزية في الفن. جاهد جهاد الجبابرة في عناد وتحدٍّ حتى كللت مساعيه بالنجاح

وفتح للرواية الأمريكية مجالات جديدة تطل منها على العالم، فقد رحل إلى البحار ووصف رحلاته فإذا هو يفتح بابًا عريضًا من أبواب الرواية الأمريكية حول مغامرات البحار. لقد كانت رحلاته وحروب الأساطيل إبان دفاع أمريكا عن سيادتها مغامرات تغري بالقصص، وكانت رحلات المحيط الهادي مملوءة بالمغامرات العنيفة والمخاطرات الشاذة في سبيل التجارة وفي سبيل تعمير الوطن الجديد شاحذة للخيال مغرية بالطريف من القصص. هذه المغامرات الغريبة استهوت مشاعر الأمريكيين وجعلتهم يشغفون بالشاذ العجيب شغفًا أخذ عليهم نفوسهم وملك عليهم ألبابهم حتى أصبح هذا الاتجاه سمة من سماتهم. ولعل كتابات كوبر كانت عاملًا فعالًا في تقوية هذا الميل عندهم وتنمية هذا الشغف. لقد طرق كوبر سعيًا وراء التحرر الأدبي كل باب جديد، وأغنى الرواية الأمريكية بالموضوعات الطريفة التي مست كل جانب من جوانب هذه الحياة الفياضة المتدفقة، وبذلك استطاع أن يضع الأساس الأول للرواية الأمريكية الأصيلة ثابتًا شامخًا.

وجاء من بعده هرمان ملڤيل فكان من الطبيعي أن يحذو حذوه وأن يسير معه في الطريق نفسه فألف قصصه مستمدًا مادتها من مغامرات البحار التي عاشها، ومن الغرائب التي صادفها فلقي إعجاب القراء وصعد سلم الشهرة ولكن ضياءه لم يلبث أن خبا وقواه لم تلبث أن استنفدت، ذلك أنه لم يكن صاحب صناعة في الكتابة ولا دارسًا لأصول الفن أو متمرسًا بالنظريات النقدية، ومن ثم لم يجد ما ينعش جذور العبقرية في نفسه ويحييها من جديد، لم تكن له اتصالات أدبية، ولا صداقات أدبية، ولا

جذور عميقة في الفن والأدب. ولم يكن يعرف في الأدب إلا نفسه، وقد ثارت وانفعلت بالغامض الغريب فأنشأ مما فاض به معين العبقرية. فلما غاض المعين ولم يتجدد ماؤه توقف جريانه وسكن قلمه وظل صامتًا نيفًا وعشرين سنة؛ ثم ختم حياته بهذه القصة التي وصف بها الحياة في السفينة أندوميتابل وما جرى فوقها لفتى من البحارة يدعى «بيلي بد» جند قسرًا من إحدى السفن التجارية وضم إلى بحارة السفينة الحربية أندوميتابل، وهو في القصة يصف حياة البحارة وصفًا دقيقًا ويتغلغل إلى أعماق نفوسهم ويطرح مشكلة أخلاقية وعلة نفسية من أعصى العلل على التحليل ويدير حولها عقدة القصة.. إنه يتحدث عن الانحراف بالطبيعة، الانحراف الذي يولد مع الإنسان، الانحراف الذي لا نعرف له سببًا ظاهرًا ولا علة من بيئة أو تربية أو تأثير ما، الانحراف الذي يحمل على الشر للشر، الانحراف الذي يجعل صاحبه لا يطيق أن يرى في الوجود مخلوقًا يبزه قوة أو جمالًا أو خلقًا، الانحراف الذي لا يطيق الطيبة أو الخلق الرضيّ، الانحراف الذي يجعل الحسد يأكل قلب صاحبه في خفية كما تأكل النار القطن في بالاته في عنابر السفينة في خفاء من الأعين ودون أن يحس بانتشارها إنسان- هذا الشذوذ الطبيعي هو موضوع هذه القصة، هذه النار المستعرة من الحسد والحفيظة في قلب كلاجارت مدرب السلاح ورئيس الشرطة في السفينة أندوميتابل، هي التي رسمت أحداث هذه القصة وخطت مصير فتى من بحارتها هو الطيبة مجسدة وصفاء النفس وكمالها، وأوردته موارد الحتوف... على أن الشر لقي مصيره العادل فوقع قضاء الله على حنانيا ممثلًا في كلاجارت، فخر ميتًا قبل الذي كان يضمر له الموت.

وفي ثنايا القصة نظرات صادقة أملتها تجارب الحياة، ونقدات لاذعات لكثير من العلل والأدواء الاجتماعية، وتحليلات بارعة لأعمال الناس وتصرفاتهم في إخلاص واستقامة تجاوز الحدود أحيانًا كما يجاوز الطير البري في ارتحاله حدود الأوطان عن غير وعي أو حس بأنه تجاوز هذه الحدود. والحق أنها قصة ممتعة سيجد القارئ في مادتها غناء لعقله؛ وفي تحليلها متعة لنفسه، وهي بعد تستقي موضوعها من البحار التي كان ملڤيل لا يحس نفسه إلا وهو غارق في لججها وسط العواصف والأهوال، ولا تتحرك قيثارته لترجع أعذب الأنغام إلا على أثر انفعاله بمغامراتها، وهي خاتمة لعدة روايات أولاها تيبي، وثانيتها أومو Omoo، وثالثتها الحلة البيضاء White Jacket، ورابعتها وأعظمها وأخلدها موبي دك أو الحوت، وخامستها ماردي Mardi، وسادستها بيير Pierre، وسابعتها رد بيرن Redburn، وكلها تستقي معانيها من السنوات الأربع التي قضاها يذرع البحار والنغمة السائدة فيها جميعًا هي السعي وراء حقيقة ينشدها، فهو يبحث عن وضع اجتماعي أكثر تلاؤمًا مع مثله العليا التي خرج بها من دراساته وقراءته من هذا المجتمع الذي تقدمه له دنيا القرن التاسع عشر... فهو يفضل الحياة وسط المتوحشين وأكلة اللحوم عن الحياة وسط هموم هذا المجتمع ومتاعبه، فقد عامله هؤلاء المتوحشون بمزيد من الاهتمام والعناية ما كان يمكن أن يخلعوا عليه أكثر منه لو أنه كان ملكًا من السماء جاء لزيارتهم.

أما أسلوب ملڤيل كما يبدو من خلال هذه القصة فيتمثل في ازدحام المعاني على رأسه وتدافعها على قلمه تدافعًا يجعل عباراته أميل إلى

الغموض الذي يحتاج قارئه إلى كثير من إعمال الروية والوقوف عند كل عبارة ليستجلي غوامضها. وأفكاره في تزاحمها تضيق بها عباراته حتى ليحتاج فهمها إلى طول الأناة في معالجتها لتستبين أهدافها التي قصد إليها، والحق أني قد لقيت في نقل هذه القصة إلى العربية عناء وأي عناء، ولكني بذلت لها جهدي، وكرست لها من وقتي على ضيقه ما أحسب أنه جلاها في صورة أقرب ما تكون إلى الكمال. والله أسأل أن يجد فيها قراء العربية مثلًا حيًّا للأدب الأمريكي في القرن التاسع عشر.

مصطفى حبيب

U U U

بيـــلي بـد

سيرة ما وقع له في عام الثورة الكبرى وما تلاها، مهداة إلى «جاك تشيز» الإنجليزي أينما يكون مستقرًا في الأرض أو في جنة الخلد.

مهداة إلى قائد السارية الرئيسية في الفرقاطة الأمريكية «الولايات المتحدة» سنة ١٨٤٣.

في خلد كل مفكر اليوم أن سنة ١٧٩٧م- وهي السنة التي وقعت فيها حوادث هذه القصة- تنتمي إلى حقبة من الدهر ران فيها على العالم المسيحي أزمة بالغة الخطورة في اتساع مداها لم يسبق أن شهد مثلها في أي حقبة أخرى من حقب التاريخ المسطور. ومرد ذلك إلى أن أول عمل أملته روح هذا العصر هو البدء بتقويم أخطاء العالم القديم الموروثة[1]. وقد اصطبغ هذا التقويم إلى حد كبير في فرنسا بالدم المهراق، ولكن هل انتهى هذا

(١) وفي نسخة سابقة أضيفت هذه العبارة: الأمر الذي رحب به أنبل الناس في هذا العهد وتأثر به أصلبهم عودًا من أمثال وردزورث.

التقويم إلى غايته في إصلاح الأخطاء؟ الواقع أن الثورة انحرفت هي الأخرى إلى طريق الإثم حتى أضحت أكثر عسفًا وأشد إيغالًا في الظلم من الملوك، وفي عهد نابليون أخذت نفسها بتنصيب ملوك محدثين واستحدثت الآلام التي استطال وخزها نتيجة للحروب المستمرة التي شنتها والتي بلغت ذروتها في موقعة «واترلو».

وخلال هذه السنوات ما كان أحكم الناس بمستطيع أن يتنبأ بأن كل هذه الحروب والآلام ستسفر عن تقدم سياسي في جميع الاتجاهات يشمل الأوروبيين جميعًا على الرغم من أن بعض المفكرين اليوم يرون أن هذا الاتجاه كان واضحًا منذ البداية.

والواقع هنا، وكما أشير إلى ذلك في مواضع أخرى، أن قبسًا من روح هذه الثورة هو الذي مس بعض الأفراد في «سبتهيد» في إنجلترا وأشعل روح التمرد في نفوس بعض رجال السفن الحربية ضد كل مظاهر سوء الاستغلال الحقيقية التي تقادم العهد عليها ولما تُقَوم، وهذا القبس ذاته هو الذي حدا بهؤلاء الأفراد في «نور» Nore أن يتقدموا بمطالبهم التعسفية وغير المعقولة. والحق أن القضاء على هذا التمرد لم يتحقق إلا بعد أن علق زعماء هذه الثورة في المشانق وتركوا مدلاة رؤوسهم أمام أنظار رجال الأساطيل الراسية في الميناء ردعًا لغيرهم وزجرًا لكل من تحدثه نفسه

بالانتقاض والعصيان. ومهما يكن من شيء فإن ما أسفرت عنه هذه الثورة الكبرى في البحرية البريطانية يشبه إلى حد كبير ما أسفرت عنه الثورة الفرنسية؛ فعلى الرغم من نظرة الإنجليز في تلك الأيام إلى هذه الثورة وحسبانها من الأعمال الإجرامية الكريهة، فقد أدت هذه الثورة بلا مشاحة إلى خلق الحوافز الكامنة التي دفعت إلى تحقيق معظم الإصلاحات التي وقعت في البحرية البريطانية بعد ذلك.

U U U

بيـــلي بـــد البحار

رواية من الداخل

في العهد الذي سبق استخدام السفن البخارية كان المتجول في مرافئ أحد الثغور البحرية المهمة كثيرًا ما يسترعي انتباهه في ذلك الوقت أكثر مما يسترعيه الآن تجمع جماعة من البحارة من ذوي البشرة النحاسية على الشواطئ في غير لباس العمل، وهم عادة إما من بحارة السفن الحربية أو السفن التجارية الذين يقضون إجازتهم في حرية واسترخاء.

وكانت عادة هؤلاء البحارة في كثير من الأحيان أن يلازموا أو يحيطوا بشخصية بارزة من بين طبقتهم ويسيروا حوله كحاشية له يتحركون معه أينما تحرك، وهو بينهم كالنجم الساطع تحيط به هالة من النجوم الأخر الأقل سطوعًا وضياءً؛ هذه الشخصية البارزة كانت تتمثل في «البحار الوسيم» الذي عاصر الفترة الأقل ملالة من مثيلاتها في تاريخ الأساطيل التجارية والعسكرية. هذا البحار الوسيم لم يكن يبدو عليه أي أثر من آثار الصلف أو الغرور، وكل ما هنالك أنه كان يتقبل عبارات الولاء والتوقير المنبعثة من نفوس زملائه البحارة بشيء من الاعتداد الطبيعي بالنفس والشعور الغريزي بالسيادة في غير ما تصنع.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فقد ذكرتني هذه المقدمة بحادث غريب نوعًا ما وقع لي... كان ذلك في ليفربول منذ نصف قرن من الزمان؛ فقد رأيت تحت الظل المعتم للحائط الكبير الذي كان يعترض الطريق في ميناء «برنس» (وهو عقبة كأداء أزيلت منذ زمن طويل) بحارًا عاديًا شديد اسوداد البشرة مما يقطع بأنه من سكان أفريقيا ذوي السلالات الخالصة المنحدرة من حام بن نوح... وكان هذا البحار ذا قوام متناسب يزيد طوله قليلًا على المتوسط، أحاط عنقه بمنديل حريري رمادي اللون تتدلى أطرافه متراقصة فوق الجزء العاري من صدره الأبنوسي، وفي أذنيه حلقتان كبيرتان من الذهب وعلى رأسه الجميل قلنسوة إسكتلندية ذات شريط مدلى.

وكان الوقت حين رأيته ظهر يوم حار من أيام شهر يوليو، وكان وجهه يلمع من العرق المتصبب فوقه مشرقًا بابتسامة تنم عن مزاج طيب وروح مرحة، وكان يغدو ويروح مختالًا وسط جماعة من زملائه البحارة في غبطة تكشف عن أسنانه البيضاء اللامعة. وكان الجمع الذي يلتف به خليطًا من القبائل المختلفة والسحن المتفاوتة وهم في تفاوتهم أشبه ما يكونون بهذه المجموعة التي قادها الثائر البروسي «آنا كاريثز كلوتز» وقدمها لأعضاء المجلس الفرنسي الأول على أنها ممثلة لكل أنواع الجنس البشري كله. ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الحاشية من البحارة التي تحيط به تظهر عند كل مديح يوجه إليه، أو إطراء يخلع عليه سواء أكان هذا الإطراء في صورة سكون خاشع أم في إدامة النظر إليه أو الإعجاب به، كانت الحاشية عند كل مظهر من هذه المظاهر تظهر شيئًا

من الفخار بهذا المعبود الذي يثير في نفوسهم هذا الاحترام أشبه ما يكون بهذا الإكبار الذي لا يعتوره شك، والذي كان يظهره الكهان الأشوريون للعجل المنحوت الذي كانوا يعبدونه ويسجد له المخلصون منهم.

على أية حال لنعد من هذا الاستطراد إلى استئناف الحديث عن قصة البحار- هذا البحار الوسيم الذي عاش في تلك الحقبة، وإن يكن في بعض الحالات يبدو حين ينزل إلى الشاطئ أشبه ما يكون في شخصيته البحرية بالقائد الفرنسي مورات، إلا أنه لم يكن بحال ليظهر بمظهر البحار بيلي الملعون المختال بنفسه المعجب بها؛ تلك الشخصية الفريدة التي اختفت من الوجود الآن وإن صادفنا بعض أشكالها في الفينة بعد الفينة على صورة أكثر إمتاعًا من الشخصية الأصلية فوق دفة السفن التي تمخر عباب بحيرة إيري العاصفة، أو في أعلى السواري في الممرات العلوية بين حبال السفن التي تسبب الدوار. لقد كان هذا البحار الوسيم دائمًا ظاهر التفوق في جميع أعماله البحرية المحفوفة بالمخاطر، وفوق ذلك كان ملاكمًا ومصارعًا ممتازًا ذا قوة خارقة. وفي الحق كان يجمع بين الجمال والقوة، وتروى القصص عن بسالته وشجاعته؛ فعلى الشاطئ كان دائمًا البطل، وعلى ظهر السفينة كان المتحدث باسم زملائه، وفي كل مناسبة ملائمة كان على الدوام في الطليعة، فإذا ما أريد ضم أشرعة المركب العلوية إبان هبوب العاصفة سارع هو للقيام بهذا العبء الخطير فيحيط برجليه الطرف العلوي للساري الذي يبين اتجاه الريح كما لو كان ممتطيًا صهوة جواد، ثم يجذب بكلتا يديه القلع إلى الفتحات الخلفية التي يربط بها، وهو في هذا الإقدام الباسل يسلك إلى حد كبير مسلك الإسكندر الشاب عندما

كان يمتطي صهوة حصانه الجامح الحاد الطبع «يوسيفالوس» وبمهارته وقوته يروضه ويكبح جماحه.

لقد كان لذلك البحار الوسيم قوام رائع شامخ ينافح به السماء العاتية العاصفة ويناطحها كأنما يناطح بقرني الثور الشامخ في قبة الفلك؛ على أنه في صراعه لهذه الصرصر العاتية كان دائمًا بادي البشر يحيي في مرح زملاءه المكافحين من الذين يبذلون غاية جهدهم والمنتشرين فوق سقف السفينة.

إن الكمال الجثماني يندر جدًا ألا يصاحبه الكمال الخلقي، ولذلك فلولا أن بحارنا الوسيم قد جمع إلى الوسامة والقوة الجسمانية حسن الخلق ودماثة الطبع- وهما خلتان اقترانهما محمود في الرجال يخلع عليهم الجاذبية دائمًا- لما استطاع أن يجتذب هذا الضرب من التقدير الصادق الذي كان يتلقاه البحار الوسيم في أكثر من مناسبة من زملائه الأقل منه في تلك المواهب التي خصه بها الخالق.

هذا النجم اللامع الذي كان محط الأنظار، على الأقل من حيث مظهره، وإلى حد كبير من حيث مخبره، والذي ازداد لمعانه وإن يكن بنسب متفاوتة مع تقدم مجريات هذه القصة، كان هو البحار الوسيم ذا العينين الصافيتين «بيلي بد» أو «بيبي بد» كما أصبح من المألوف أخيرًا أن يُنادى بسبب ظروف وحوادث سنذكرها فيما بعد. كان بد في الحادية والعشرين من عمره يعمل حارسًا للسارية العليا في الأسطول البريطاني حوالي نهاية العشرة الأخيرة من القرن الثامن عشر. وكان دخوله في البحرية الملكية غير سابق بزمن طويل على حوادث هذه القصة التي سنرويها فيما يلي،

فقد جند إجباريًّا للخدمة البحرية من فوق ظهر سفينة تجارية إنجليزية كانت تمخر البحار الضيقة في طريقها إلى أرض الوطن ونقل إلى ظهر سفينة حربية كانت في طريقها إلى البحار الواسعة تسمى «الأندوميتابل»، وكانت هذه السفينة قد اضطرت- على المألوف في تلك الأيام العجلة- أن تخرج إلى البحر ولما تكتمل عدتها من الرجال. وقد وقع نظر الضابط المنوط به تجنيد البحارة إجباريًا- وهو الملازم «راتكليف»- على بيلي بد لأول وهلة وهو يرتقي المعبر المؤدي إلى السفينة التجارية فتعلق به وصمم على تجنيده حتى من قبل أن يصطف البحارة الآخرون على ظهر السفينة التجارية ليستعرضهم ويدقق فيهم النظر بصفة رسمية. وقد وقع اختياره عليه وحده. وقد يكون مرد ذلك إلى أن بقية البحارة بدوا غير صالحين بالقياس إلى المزايا التي تجمعت لبدْ في نظره أو لأن الضابط قد خامرته الشكوك في أن السفينة التجارية تعاني هي الأخرى النقص في عدد الرجال فآثر ألا يزيدها ضعفًا على ضعف. ومهما يكن من شيء فقد كان ضابط السفينة مسرورًا بالاختيار الذي انبعث من قرارة نفسه. ولم يتردد بيلي بد في الاستجابة إلى ذلك الاختيار، الأمر الذي أثار استغراب بحارة السفينة في حين استقبله الضابط بالشيء الكثير من الرضا والقبول على أن أي تردد في الاستجابة إلى ذلك الاختيار كان في الحقيقة عديم الجدوى وأشبه بالاعتراض الذي يبديه الطائر حين يدفع به إلى القفص.

أما زملاؤه البحارة وقد لاحظوا قبوله للاختيار- دون ما اعتراض يذكر بل يمكن أن يقال في سرور ومرح- أخذوا يلقون عليه نظرات ملؤها الاستغراب والتأنيب الصامت. وكان قائد السفينة رجلًا من هؤلاء

الأفراد الذين يتميزون بالإنسانية والذين يجدهم الفرد في كل مهنة، بل ومن أكثر الأفراد تواضعًا، وهو من ذلك النوع من الرجال الذي يتفق الجميع على تسميته بالرجل المحترم. وليس من المستغرب أن نقرر كلما اقتضى الأمر أن هذا الرجل رغم أنه عرك البحار الصاخبة وقضى عمره في مقاومة العناصر العنيدة لم يكن هناك شيء أحب إلى قلبه الصادق من أن يعيش ببساطة في هدوء وسلام. وكان ذلك القائد في الخمسين من عمره أو ما يقرب من تلك السن، يميل إلى السمنة، ذا وجه أملس خال من الشعر ولون مقبول يستميل الناظر إليه- وجه كامل توحي تعبيراته بالذكاء الآدمي. وفي الأيام الصافية التي تكون فيها الريح هادئة وكل شيء على ظهر السفينة يسير سيرًا حسنًا يمتزج صوته برنة موسيقية هي تعبير صادق بلا أدنى تعمل عن مشاعره الداخلية. وكان ذلك القائد على شيء كثير من الحزم والوعي إلا أنه في بعض الحالات كانت هذه الفضائل من أسباب عدم شعوره بالهدوء و السلام.

وفي خلال الرحلات كان دائمًا عندما تقترب سفينته من الأرض لا يغمض له جفن؛ ذلك لأن كابتن «جرافلنج» كان يعنى في إخلاص بالمسئوليات الخطيرة الملقاة على عاتقه والتي كان بعض قادة السفن لا يولونها نفس الأهمية..

وفي الفترة التي قضاها البحار «بيلي بد» في الطابق السفلي من مقدمة السفينة يجمع حاجاته كان الملازم راتكليف بقامته الضخمة ومنظره الفظ يسلك طريقه إلى حجرة القائد ويدخلها غير عابئ بإغفال ربان السفينة الكابتن جرافلنج تقديم مظاهر الحفاوة المعتادة ولا سيما في مثل هذه

المناسبات التي كان لا يرحب بها. والواقع أن إغفال الربان الحفاوة كان مرده في بساطة إلى انشغال باله وانهماكه في التفكير. وعلى الرغم من ذلك فقد دعا الملازم راتكليف نفسه للدخول في حجرة القبطان دون حاجة إلى حفاوة، وتقدم من خزانة الخمور وفتحها وأخرج منها زجاجة من الخمر لمحتها عيناه المجربتان لأول وهلة. و الحق أن الملازم راتكليف كان من كلاب البحر الذين لم تستطع كل مخاطر ومصاعب الحياة البحرية التي وقعت لهم في خلال الحروب الكبيرة الطويلة التي عاصروها أن تغير شيئًا من طبيعة ميلهم الغريزي إلى إشباع ملذاتهم الحيوانية. وكان راتكليف يؤدي واجباته في إخلاص إلا أن هذه الواجبات كانت تبدو له في بعض الأوقات التزامات جافة، لذلك كان يرحب دائمًا بإرواء هذا الجفاف كلما أمكن ذلك بتناول المشروبات القوية المخصبة.

بإزاء هذا الصنيع لم يكن أمام القبطان جرافلنج صاحب خزانة الخمور إلا أن يلعب دور المضيف على الرغم منه بكل ما تتطلبه الضيافة من لطف وبشاشة، ومن ثم قام في هدوء وأحضر أدوات الشراب من قدح وإبريق وماء. ووضعها أمام ضيفه الجامح الشهوات، وجلس في صمت حزين يرقب حركات هذا المجترئ بعد أن اعتذر إليه من عدم استطاعته مشاركته في الشراب، وقد أخذ يمزج الشراب بقليل من الماء في عمد وإصرار ليكسر بعض حدته ثم يقذفه إلى جوفه على ثلاث جرعات، وحين انتهى دفع بالكأس غير بعيد لتكون في متناول يده. ثم اعتدل في مقعده بعد ذلك وأخذ يمصمص شفتيه في رضا وهو يوجه نظرات ثابتة إلى مضيفه. وما إن انتهت هذه العملية حتى قطع القبطان السكون الذي خيم على الجلسة

قائلًا وقد كمنت في نغمات صوته رنة من العتب والتأنيب:

«سيدي الملازم، إنك بسبيل أن تستولي على خير رجالي وأن تسلبني إياه، إنه درة ثمينة بين رجالي جميعًا».

«نعم أعرف ذلك». قالها الملازم راتكليف وهو يسحب إليه القدح في سرعة استعدادًا لملئه مرة ثانية.. «نعم.. أعرف ذلك... وآسف له».

«أستميحك المعذرة يا سيدي الملازم فأنت تكاد لا تدري مبلغ ذلك عندي. إنه لأمر جد خطير؛ ذلك أنني قبل أن أضع هذا الرجل على ظهر سفينتي كان سطحها العلوي بؤرة للمشاجرات والمشاحنات... كنا نقضي أوقاتًا سوداء على ظهر هذه السفينة «رايتس» وكان القلق يملك على أطراف نفسي، ولم يكن تدخيني «لغليوني» مهما طال لينجح في إدخال الطمأنينة أو الراحة إلى نفسي. وما إن جاء بيلي حتى كان مقدمه على جماعة السفينة أشبه بمقدم كاهن كاثوليكي يحمل السلام إلى جماعة أيرلندية صاخبة. ولم يكن ذلك لأنه وعظهم أو قال لهم شيئًا ما أو صنع بهم شيئًا خاصًا. كلا، بل قل فضيلة انبعثت لتضفي من حلاوتها ما يسيغ من مرارة الأفراد الآخرين... فقد تجمعوا حوله كتجمع النمل على العسل.. كلهم- اللهم إلا مثير الفتن بين الجماعة- ذلك الفتى الضخم الرث الهيئة ذو الشارب الأحمر القاني الذي كان يعتقد- ربما مدفوعًا بشيء من الحسد والغيرة من القادم الجديد- أن مثل ذلك «الفتى الطيب الدمث الخلق» كما كان يشير إليه دائمًا في سخرية واستهزاء خلو من روح القراع، ومن ثم فلا سبيل إلى أن يقاتله أو يدخل معه في صراع إلا بجهد جهيد.

لذلك أجهد نفسه محاولًا الاصطدام به والالتحام معه. أما بيلي بد- وقد توقع ذلك من ذي الشارب الأحمر- فقد احتمل مضايقاته إلى أبعد حد وحاول أن يجادله بالتي هي أحسن، فهو رجل مثلي أيها الملازم لا يكره شيئًا قدر كراهيته للمشاجرات، إلا أن ذلك لم يجد فتيلًا.. لذلك ففي أثناء نوبة الحراسة الثانية في أحد الأيام وفي حضور البحارة الآخرين لكم ذو الشارب الأحمر بيلي بد لكمة قوية أسفل ضلوعه متظاهرًا بأنه أراد أن يبين لبيلي كيفية قطع ريش اللحم!! فذو الشارب الأحمر كان يعمل جزارًا في وقت ما، إلا أن بيلي في سرعة البرق مال فلم تصبه ذراع ذي الشارب الأحمر التي اندفعت في الهواء، وانهال على ذلك الأبله الضخم بلكمات فظيعة. وأستطيع أن أقول إن بيلي لم يقصد في الواقع أن يصنع بذلك البحار كل ما صنعه به، ولم يستغرق كل ذلك أكثر من نصف دقيقة فيما أعتقد. أما ذلك الكسول ذو الشارب الأحمر فقد أدهشته تلك السرعة التي تميز بها بيلي بد!

ترى أتستطيع أن تصدق أيها الملازم أن ذا الشارب الأحمر قد انتهى به الأمر إلى أن أحب بيلي بعد هذه الحادثة؟! أحبه من كل قلبه حبًّا صادقًا، وإلا يكن كذلك فهو أشد من عرفت نفاقًا!! وعلى أية حال فكل البحارة يحبونه ويتنافسون في خدمته، فبعضهم يقوم بغسل ملابسه، والبعض الآخر يرفو سراويله القديمة، والنجار يقوم في أوقات فراغه بعمل خزانة ذات أدراج له. والحق أن كل فرد فيهم على استعداد أن يعمل أي شيء لبيلي. إنهم يعيشون الآن في وفاق كأبناء الأسرة السعيدة. أما الآن فإذا قدر لهذا الفتى أن يذهب فأنا أعلم الناس بما ستؤول إليه أحوال هذه

السفينة «رايتس». أجل لن أستطيع إذا فقدته أن أستمتع بالتدخين في هدوء بعد العشاء مستندًا إلى إحدى الروافع كما اعتدت أن أفعل. لا. لن تعود إلي هذه الراحة في سرعة مرة ثانية. لا أعتقد ذلك هيه. أيها الملازم إنك ستأخذ أحسن هؤلاء الرجال. إنك ستأخذ صانع السلام بين رجالي». وختم الكابتن رافلنج كلامه وهو يحاول أن يكتم نشيجًا غلب على صوت هذا الإنسان الطيب القلب.

«حسنًا...» قالها الضابط الذي كان ينصت في اهتمام مريح لكل ما قاله الكابتن وهو جذلان من أثر ما شربه من خمر... حسنًا... رحم الله صانعي السلام... وخاصة صانعي السلام المحاربين من أمثال الأربعة والسبعين المدفع الجميلة التي ترى بعضها يرفع أنفه من خلال فتحات تلك السفينة الحربية الماثلة أمامي.. قالها وهو يشير من خلال نافذة القمرة إلى السفينة «أندوميتابل».

«ومع ذلك شيئًا من الشجاعة أيها الكابتن، لا تبد هكذا كرجل محطم القلب، فأنا أضمن لك مقدمًا الرضا الملكي... وكن على يقين أن صاحب الجلالة الملك سيسر عندما يعرف أنه في الوقت الذي كانت كعكة جلالته اليابسة غير مرغوب فيها من البحارة على عكس ما يجب أن يظهروه من شهية لها و إقبال عليها، وفي وقت كان بعض قواد السفن كذلك يرفضون في الخفاء إعارة بحار أو اثنين للخدمة في بحرية جلالته- أقول إن صاحب الجلالة سيسر جدًّا عندما يعلم أن قائدًا واحدًا في أقل القليل قدم لجلالته في جذل وسرور الزهرة اليانعة بين رجاله... بحارًا لا يقل في ولائه عن ولاء قائده، لقد قبل الالتحاق بالخدمة دون اعتراض ما،

ولكن أين بحاري الجميل؟.. آه..» ثم استطرد قائلًا وهو ينظر من خلال باب القمرة المفتوح.. «ها هو ذا قادم.. وقد برز صدره للأمام.. كأبولو حاملًا حقيبته الجلدية.. هذا هو الرجل الذي أريده..» ثم خرج متجهًا إلى بيلي بد.. «إنك لا تستطيع أن تأخذ هذا الصندوق الكبير إلى سطح سفينة حربية، فمعظم الصناديق هناك صناديق للذخيرة.. ضع حاجاتك في حقيبة أيها الفتى.. فالحذاء ذو الرقبة والسرج ألزم للفارس، أما البحار في سفينة حربية فتلزمه الحقيبة والفراش (فراش البحارة على شكل أرجوحة كالشبكة»).

وبعد أن تم نقل محتويات الصندوق إلى الحقيبة نزل بيلي بد البحار الذي اختاره الملازم راتكليف من السفينة إلى قارب صغير يتبعه الضابط ثم انطلق القارب مبتعدًا عن سفينة التاجر البريطاني- رايتس أوف مان «حقوق الإنسان». فذلك كان اسم السفينة، وإن كان ربان السفينة والبحارة يختصرونه بطريقتهم الخاصة إلى رايتس «الحقوق» فقد كان صاحب السفينة الاسكتلندي صلب الرأي من المغرمين بالقوانين والمعجبين «بتوماس بين» الذي كان كتابه في الرد على كتاب بيرك عن الثورة الفرنسية قد نشر منذ بعض الوقت وانتشر في كل مكان. وعندما أطلق ذلك الرجل من ثغر واندي باسكتلندا عنوان كتاب «بين» على سفينته كان في الواقع يحذو حذو معاصره «ستيفن جيرارد» من أصحاب السفن في فيلادلفيا الذي عبر عن مشاعره ومشاعر بلاده وفلاسفتها المتحررين بأن أطلق على سفنه أسماء «ديديرو» وفولتير وغيرهما من رجال الثورة الفرنسية.

أما الآن وقد أخذ القارب الصغير يزحف أسفل مؤخرة سفينة التاجر

لاحظ الضابط وبحارة التجديف الاسم المنقوش على السفينة، وأبدى بعضهم شيئًا من المرارة بينما قابله البعض الآخر في ابتسامة عريضة. وفي هذه اللحظة قفز المجند الجديد بيلي بد من المكان الذي أجلسه فيه الضابط المتحذلق وأخذ يحرك قبضته إلى زملائه الصامتين الذين كانوا ينظرون إليه في أسف بينما كان يودعهم في بشاشة ومرح، ثم أدى التحية للسفينة قائلًا: «وداعًا لك أيضًا يا سفينة «حقوق الإنسان». وهنا صاح الملازم: «اجلس أيها السيد...» متشحًا كل السلطان الذي يضفيه عليه مركزه وإن كان في الواقع يحاول في صعوبة كتم ابتسامة بدت على وجهه.

وعلى سبيل اليقين كانت الحركة التي أبداها بيلي خرقًا شنيعًا لآداب البحرية العامة ولكنه على أسف لم يلقن تلك الآداب، ومن ثم فلو أن الأمر اقتصر على هذه الحركة لما هبّ الملازم بهذه السرعة إلى تقريعه ولومه، ولكنَّ ما أثار الملازم وحمله على تأنيب بد هو ذلك الوداع الأخير للسفينة. فقد أخذ تلك الكلمات التي قالها بيلي على أنها تهجم مستتر من ذلك البحار أو على أنها تعريض ماكر بالسخرة بصفة عامة، وله بصفة خاصة. بيد أن كلمات بيلي وإن أخذت في آثارها على أنها تعني التعريض والسخرية فهي من حيث النية لم تكن لتقصد إلى شيء من هذا؛ ذلك أن بيلي بد رغم أنه كان يرفل سعيدًا في مباهج الصحة الموفورة والشباب وخلو البال لم يكن ذا طابع هجاء؛ إذ كانت تنقصه الرغبة فيه والمهارة في اللعب بالألفاظ. فالإيماء والتلميح واللعب بالألفاظ ذات المعنى القريب والبعيد كانت أبعد الأشياء عن طبيعته.

وكان تقبله التجنيد الإجباري في خدمة البحرية بنفس سمحة أشبه

ما يكون بتقبله للتقلبات الجوية، والحق أن بيلي كان قدريًّا يؤمن بالقدر، شأنه في ذلك شأن الحيوانات، ولم يكن ذلك عن فلسفة خاصة، بل كان هذا منحاه عمليًا عن غير علم به. ولعله كان مسرورًا بهذا التغير المحفوف بالمخاطر في شئونه الخاصة لأنه كان يهيئ له فرصة لمشاهدة مناظر جديدة والدخول في معارك حربية مثيرة.

وعلى ظهر السفينة «أندوميتابل» سرعان ما اعتبر بحارنا التجاري من رجال البحر ذوي الكفاية وأسندت إليه الحراسة بالجانب الأيمن من مقدمة السفينة. وسرعان أيضًا ما شعر كأنه بين زملاء قدماء في الخدمة لا ينفسون عليه إطلاقًا وسامة خلقته ولا يكرهونه لسلوكه السعيد البهيج. ولم يكن بين مجموعة الأفراد الذين يساكنونه في العنبر من هو أكثر منه مرحًا وقد كان في مرحه ظاهر التناقض لمسلك غيره من البحارة الذين جندوا إجباريًا مثله لخدمة البحرية على ظهر هذه السفينة. فقد كان هؤلاء الأفراد في بعض الأوقات- عندما لا توكل إليهم خدمات معينة وخاصة في نهاية نوبة الحراسة الأخيرة حينما تتلون السماء بلون الشفق الذي يوحي بالوقار والهدوء- يمسون أكثر ميلًا لحالة نفسية ملؤها الحزن الممزوج بشيء من الكآبة والبؤس. إلا أن هؤلاء الأفراد ما كانوا في مقتبل العمر شأن ذلك البحار، والقليل النادر من بينهم الذي لم يعرف عائلة من نوع ما. فبعضهم ربما التحق بخدمة السفينة مخلفين وراءهم زوجاتهم وأولادهم في مكان ما، وربما في ظروف غير مستقرة. والحق أنه يندر أن يوجد من بينهم من لا يمت بصلة لأقارب ومعارف. بينما كانت كل عائلة «بيلي بد»- كما سنتبين بعد قليل- تنحصر في شخصه فقط.

ورغم أن بحار مقدمة السفينة الجديد قد استقبل استقبالًا حسنًا من زملائه على سطح السفينة العلوي وعلى سطح السفينة المجهز بالمدافع إلا أنه لم يكن هناك محط الأنظار بين البحارة كما اعتاد أن يكون بين مجموعات البحارة الصغيرة التي تعمل في البحرية التجارية، تلك المجموعات من البحارة الذين عاشرهم حتى ذلك الوقت.

كان «بيلي بد» في مقتبل العمر رغم هيكله الكامل النمو، وكان يبدو في هيئته العامة أصغر عمرًا مما كان عليه حقيقة نظرًا لمسحة متأخرة من مسح المراهقة التي كانت تبدو على وجهه الذي كان ما يزال ناعم الملمس أنثويًا في نقاء لون بشرته الطبيعية، إلا أن شفتيه ما كانتا بلون الزنبقة وما كانت وجناته لتظهر لونها الوردي إلا بصعوبة من خلال بشرته الداكنة، ويرجع الفضل في ذلك إلى رحلاته البحرية. ولعله كان من الضروري لمثل هذا البحار- وقد كان حديث العهد بعقد الحياة المثيرة للشحناء- أن يصحب انتقاله المفاجئ من الوسط البسيط الذي كان يعيش فيه إلى العالم الأكثر اتساعًا ومعرفة على سطح سفينة حربية كبيرة ارتباكًا وخجلًا في تصرفاته لو أن شخصيته قد تميزت بالغرور أو الصلف. على أنه وسط حشد البحارة المختلفين على ظهر السفينة «أندوميتابل» جند أفراد عديدون لم يكن لهم- رغم صغر رتبهم- طابع عام مميز؛ فهم بحارة تميزوا بشدة تأثرهم بالتغيرات التي يمكن أن يحدثها النظام العسكري المستمر والاشتراك المتكرر في المعارك في شخصية الفرد العادي إلى حد ما، أما بالنسبة لمركز البحار الجميل الطلعة «بيلي بد» على سطح هذه السفينة ذات الأربعة والسبعين المدفع فقد كان شيئًا مماثلًا للجمال

الريفي؛ إذ ينقل من المقاطعات إلى المدن حيث يحاط بالرعاية؛ ليكون موضع منافسة مع سيدات البلاط العريقات النسب. إلا أنه نادرًا ما لاحظ هذا التغير في الظروف كما ندر أن لاحظ أن هناك شيئًا ما في شخصيته يثير بسمة مبهمة على شفاه الوجوه الجامدة لفرد أو فردين من بين البحارة ذوي الملابس الزرقاء كما كان قليلًا ما يدرك ذلك الأثر المحبوب العجيب الذي تتركه شخصيته وسلوكه في نفسية ضباط الثكنات الأكثر ذكاء من البحارة، وما كانت شخصيته في الواقع لتترك في النفوس أثرًا مخالفًا. فقد كان تركيبه العضلي الغريب نموذجًا رائعًا لهؤلاء الرجال من الإنجليز الذين لم يختلط أصلهم السكسوني بالدم النورماندي أو غيره على الإطلاق، كما بدت على وجهه التعبيرات الإنسانية التي تدل على طيبة النفس المريحة التي كان المثال اليوناني يخلعها في بعض الأحيان على بطله القوي «هرقل».

ولكن هذا التعبير الخير غطته ملامح أخرى فأذنه الصغيرة الجميلة واستدارة قدمه وفتحة فمه وعرنين أنفه وحتى يده الصلبة القوية التي تنم بلونها النحاسي عن اشتغال بشد الحبال وحمل دلاء القار كانت كلها في حركاتها وسكناتها يبدو فيها شيء ما؛ شيء ينم عن انحداره من أم أصيلة؛ أمٍّ عاشت متمتعة بالحب منعمة بالخير والبركات، بيد أن هذه الملامح التي تنبئ عن عراقة الأصل ما كانت لتتلاءم ألبتة مع نصيبه في الحياة مما يثير في النفس الكثير من الغرابة والدهشة، على أن هذه الغرابة لا تلبث أن تتضاءل حين ننعم النظر في كلمات عارضة فاه بها بيلي حين جند قسرًا في خدمة البحرية؛ فقد سأله الضابط البحري الذي جنده وهو ضابط شاب

قصير طلق المحيا سريع الحركة سؤالًا معينًا من بين عديد الأسئلة التي بدا له أن يوجهها إليه بهذه المناسبة، كان هذا السؤال عن مكان مولده؟ وقد أجاب عنه بيلي بهذه العبارة: «سيدي، لست أدري..» فأردف الضابط: ألا تدري مكان مولدك؟! إذن من يكون أبوك؟

- ألله أعلم يا سيدي.

والحق أن الضابط قد أخذ بهذه البساطة الصريحة وسأله على الفور: «ألا تدري شيئًا عن بداية حياتك؟».

- لا يا سيدي ولكني سمعت أني وجدت ذات صباح في سلة مبطنة بالحرير معلقة في مقبض باب رجل كريم في برستول.

وصاح الضابط- وقد مال برأسه إلى الوراء وهو يصوب فيه النظر ويصعده: «أتقول وُجدت!!. يا لها من لقطة جميلة وددت لو أنهم وجدوا الكثيرين من أمثالك فما أحوج البحرية إلى العديد منهم».

أجل كان بيلي بد لقيطًا. كان ابنًا غير شرعي، ولكنه كان واضح الأصالة تستبين في ملامحه عراقة الأصل كما تبدو في الحصان الأصيل.

هذا عن الملامح الخارجية، أما ما عداها من مظاهر فلم يكن له نصيب إلا ما ندر من حدة الذهن، ولم تكن له إثارة من حكمة الحية أو حتى سجاحة الحمامة، وكان كل ما له ذلك القدر من الذكاء الذي يتوافر لكل رجل عادي سويّ لم تدن له بعد قطوف المعرفة، فقد كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ولكنه كان يستطيع الغناء، وكان كالعندليب يؤلف أغانيه أحيانًا.

ولم يكن ثمة ما يشير إلى أن لديه شعورًا بالذات، اللهم إلا بالقدر الذي نستطيع أن نعزوه مطمئنين إلى كلب من فصيلة سان برنارد.

ولما كانت حياته كلها يقضيها في البحر ومعلوماته عن الأرض لا تزيد عن كونها المرفأ الذي يرسو إليه أو أنها هذه القطعة من العالم التي عرفت بحانات الشرب والمراقص التي تتجمع فيها الساقيات وبنات الهوى، أو في القليل بما يسميه البحارة حانات الربابة، فقد ظلت طبيعته على فطرتها البسيطة ولم تخل بهذه البساطة تلك الانحرافات الخلقية التي ليست دائمًا مما يتنافى مع هذا الشيء المصطنع الذي نسميه الاحترام ومع ذلك فلنا أن نتساءل: أيمكن أن يكون البحارة روادًا لهذه المواخير دون أن تكون لهم رذائل؟ والجواب على هذا التساؤل هو أن رذائل البحارة المزعومة هي في الأغلبية لا تصدر كما تصدر أكثر رذائل أهل البر عن إجرام متأصل في قلوبهم بل يبدو أنها أقل صدورًا عن خبث في الطوية منها عن فرط حيوية بسبب طول الكبت، وهي ظواهر صريحة تتمشى مع قانون الطبيعة. على أن بيلي بتكوينه الأصلي وما حالف هذا التكوين من مؤثرات سببها مصيره في الحياة لم يكن إلا في مرتبة أسمى قليلًا من مرتبة المتبربر المستقيم، بل قل إنه في صورته كان أدنى إلى آدم قبل أن تتسلل إليه الحية المتمدينة وتنضم إلى صحبته.

على أننا لو سلمنا بأن هذه القصة في ظاهرها ترمي إلى تأييد مبدأ سقوط الإنسان، ذلك المبدأ الذي يجمع الناس على تجاهله الآن، فالملاحظ أنه حيث يتميز بعض الناس بفضائل معينة صافية من كل شائبة نقية لم تتأثر بأي مؤثر في نطاق الحضارة، فإن هذه الفضائل تبدو بعد

الفحص والتمحيص غير مشتقة من العادات أو التقاليد، بل هي أبعد ما تكون من العادات والتقاليد وكأنما انتقلت في الحقيقة وبصفة استثنائية من فترة تاريخية تسبق في القدم مدينة قابيل والرجل المدني. والشخصية التي تتميز بهذه الصفات النقية يكون لها لدى صاحب الذوق السليم نكهة أصيلة لم تتسنّه كنكهة التوت، على حين يكون للرجل الذي استكمل أسباب المدنية لدى نفس المتذوق مهما تكن سلالته ظاهرة النقاء، مذاق غريب يحار في تعليله كمذاق النبيذ المخلوط. على مثل هؤلاء الوارثين لهذه الصفات البدائية النقية أينما وجدوا متجولين في أية عاصمة من عواصم عالمنا المسيحي اليوم مشدوهين بما حولهم، كما تجول من قبل كاسبار هاوزر لا يزال يصدق هذا النداء المشهور الذي وجهه الشاعر الطيب السريرة منذ ألفي سنة تقريبًا إلى الريفي الطيب الذي خرج من مجال حياته الريفي إلى روما مدينة القياصرة:

أيها الأمين الفقير المخلص في قوله ورأيــه

ما الذي أتـى بك إلى المدينة وحملك إليها ؟

وعلى الرغم من أن بحارنا الوسيم كان يتميز بجمال الرجولة كما ينبغي أن يكون، إلا أنه كان ينقصه شيء واحد كذلك الذي كان ينقص المرأة الجميلة التي صورها هوثورن في إحدى قصصه الثانوية، على أن ما كان يشوبه من نقص لم يكن عيبًا ظاهرًا كذلك الذي كان يشوب تلك المرأة الجميلة، لا بل كان عيبًا عارضًا في صوته يصيبه أحيانًا. وإذا كان بحارنا الوسيم حين تكشر الطبيعة عن نابها وتشتد المخاوف في البحر كان دائمًا حيث ينبغي للبحار أن يكون ثباتًا ورباطة جأش إلا أنه كان حين يتعرض

لاستثارة مفاجئة تستثير مشاعره وتمس وجدانه، كان صوته الموسيقي في غير هذه الحالات الذي ينم عما في داخله من توافق وانسجام يصيبه ضرب من التلعثم العضوي هو في الحقيقة أقرب ما يكون إلى الفأفأة أو ما هو أسوأ. وفي هذه الظاهرة التي تشوب كمال بيلي وجماله مثل بارز على أن الشيطان الرجيم الذي أقحم نفسه في جنة عدن وتدخل فيها بحقده ما يزال له أثر قل أو كثر في كل هابط من بني الإنسان في هذه الأرض؛ ففي كل حالة يتدخل بطريقة أو أخرى تاركًا طابعه ليذكرنا دائمًا بأن له يدًا في هذا الأمر. ومهما يكن من شيء فالاعتراف بهذه النقيصة التي تشوب بحارنا الوسيم ينبغي أن تؤخذ على أنها دليل، لا على أن البحار حين يقدم في هذه القصة لا يقدم على أنه بطل من الأبطال التقليديين فحسب، بل على أن القصة التي هو بطلها ليست قصة رومانتيكية.

U U U

كانت السفينة الحربية «أندوميتابل» في الوقت الذي جند فيه بيلي بد قسرًا للخدمة في البحرية تخب عباب البحر في طريقها للحاق بأسطول البحر المتوسط، ولم يمض طول وقت حتى لحقت السفينة بأسطولها وكانت الأندوميتابل باعتبارها إحدى قطع هذا الأسطول تشارك في كل تحركاته ولكنها كانت تستخدم في بعض الأحيان بسبب ما تميزت به من سرعة بحرية هيأها لها ما زودت به من أشرعة في مهمات خاصة كأعمال الكشف في غيبة الفرقاطات، وأحيانًا أخرى كانت تستخدم في مهمات

أخرى غير مؤقتة. على أن هذه المهام لا تمت بصلة لهذه القصة التي تنحصر في وصف الحياة الداخلية لسفينة بعينها ودور بحار بعينه فيها.

كان هذا التجنيد الإجباري في صيف سنة ١٧٩٧، وفي أبريل من هذا العام وقعت حادثة الانتقاض في سبتهد ثم تلتها في مايو ثورة أشد خطرًا حدثت في الأسطول في نور وتعرف هذه الأخيرة دون أي مبالغة في الوصف بالثورة الكبرى- والواقع أنها كانت عملية أشد تهديدًا لإنجلترا من المنشورات السياسية المعاصرة بل ومن الجيوش القاهرة المرتدة للإدارة الفرنسية. فلقد كانت ثورة الأسطول في نور بالنسبة للإمبراطورية البريطانية كإضراب رجال المطافئ في لندن والنيران تتهددها من كل جانب.

وفي أزمة عصيبة كانت المملكة كلها تتوقع سلفًا أن توجه إلى أفراد الشعب تلك الكلمات المشهورة التي وجهت بعد ذلك بسنوات إلى جميع البحارة في ميدان القتال البحري وأذيعت في جميع صفوف الأسطول من أن إنجلترا تطلب من كل رجل فيها أن يؤدي واجبه في مواجهة الخطر. وإبان هذه الأزمة هب بحارة الأسطول وهم حينئذ يعدون بالألوف في تمرد فوق متن سفنهم ذات الثلاثة الأسطح والمدافع الأربعة والسبعين. والأسطول يومذاك هو عضد هذه الدولة العظمى التي كانت بحق الدولة المحافظة الحرة الوحيدة في العالم القديم وذراعها اليمنى. هبّ بحارة هذا الأسطول الراسي في مرافئها يصطخبون وقد أزالوا من الأعلام البريطانية رمز الوحدة والصليب، وهم حين محوا شارات الوحدة والصليب قد حولوا العلم رمز القانون المستقر والحرية الثابتة إلى الشهاب الأحمر رمز

العدوان، وشارة الثورة الهوجاء التي لا ضابط لها ولا حد. لقد استعرت مظاهر السخط المعقولة التي سببتها بعض المساوئ العملية في البحرية وتحولت من سخط إلى سعير مندلع أوقدت لظاه الحمم التي قذفت بها فرنسا ملتهبة عبر القناة..

هذه الثورة جعلت الناس يتندرون في سخرية لاذعة بعض الوقت بالأغنية الموحية التي وضعها «دبدن» أحد مؤلفي الأغاني الشعبية والتي أشاد فيها بوطنية البحار البريطاني ومجد فيها إخلاصه وتفانيه في خدمة وطنه إلى جانب أشياء أخرى حين قال على لسانه:

«أما عن حياتي فإنها كلها فداء للملك».

على أن «دبدن» هذا لم يكن ظلًّا تبيعًا للحكومة البريطانية في الأزمات الأوروبية بطبيعة الحال.

ومهما يكن من شيء فقد جنح المؤرخون البحريون في بريطانيا إلى اختزال الحديث عن هذه الواقعة وهم يسجلون تاريخ البحرية البريطانية العظيم. على أن أحدهم- ويدعى جيمس- على الرغم من تسليمه المتحمس بأنه لا يستطيع بحال أن يغفل ذكر هذه الحادثة أو أن يمر بها مرورًا عابرًا لأن حيدة المؤرخ تتنافى مع إغفال الحوادث لإرضاء الشعور الوطني؛ فإنه حين عرض لهذه الحادثة اكتفى بالسرد غير المحقق الذي لا يصلح أن يكون مرجعًا وقلما عني بذكر التفاصيل. وهذه التفاصيل ذاتها ليس من الميسور الحصول عليها من أي مكتبة من المكتبات العامة.. على أن هذه الثورة البحرية الكبرى شأنها شأن الحوادث الجلى التي تحيق بالدول العظمى في كل مكان وفي كل عصر بما في ذلك أمريكا

لها طابع مميز ظاهر لا يمكن للعزة الوطنية ولا للأساليب السياسية مهما يكن دوافعها أن تعمل على إخفائه وأن تطويه في حجب التاريخ.. والحق أن مثل هذه الأحداث البارزة لا سبيل إلى تجاهلها ولكن علاجها تاريخيًا له وسائله الخاصة التي ينبغي أن توضع موضع الاعتبار، ذلك أن الأمة كأي فرد متزن تحرص كل الحرص على ألا تكبر من أخطائها وألا تنشر مساوئها على الناس، وإذا كان الفرد العادي المتزن يتأبى أن يذيع أي شيء عن أسرته فيه مساس بها أو إذاعة لأخطائها ومصائبها فإن الأمة في مثل هذه الظروف لا تلام إذا كانت أشد منه حرصًا في هذه الناحية.

وإذا كانت الحركة الأولى التي ثارت في سبتهد قد أمكن إخمادها بكل جهد جهيد بعد محادثات ومفاوضات بين الحكومة وزعماء الحركة ارتضت فيها الحكومة التعهد برفع بعض المظالم الصارخة، وهدأت نتيجة لها الحال فترة ما فإن تجدد العصيان في غير توقع وعلى مجال واسع في نور مع الإصرار عليه في المؤتمرات التي عقدها العصاة بعد ذلك الأمر الذي أكدته المطالب التي تقدموا بها والتي رأت السلطات البحرية أنها ليست مستحيلة الإجابة فحسب، بل تنطوي على وقاحة عدائية، قد دل على الروح المسيرة لهؤلاء الثائرين غير مجرد الانضواء تحت علم الثورة الأحمر. على أن هذه الثورة لم تلبث أن أخمدت نهائيًا وكان الفضل في إخمادها لروح الولاء الثابتة لضباط البحرية وقادتها وعودة بعض قطاعات البحارة ذات النفوذ إلى ولائهم طائعين مختارين.

ويمكن إلى حد ما أن نشبه ثورة نور في البحرية البريطانية بفورة الحمى المعدية في جسم سليم قوي البنيان بحكم تكوينه، فهو لا يلبث

أن يطرد هذه الحمى ويتغلب عليها.

وعلى أية حال فإن من بين هؤلاء الثائرين الألوف بعض البحارة الذين شاركوا بعد الثورة بقليل في إحراز إكليل النصر الذي توج رأس نلسون في معركة النيل البحرية، بل وفي إحراز الأكاليل التي توجته بالغار في معركة الطرف الأغر. وهؤلاء البحارة سواء أكانت دوافعهم في ذلك روح الوطنية أم روح حب القتال، أو الاثنين معًا، فقد كانوا يرون في هذه المعارك الفاصلة- وعلى الأخص معركة الطرف الأغر- تكفيرًا كاملًا عن ذنوبهم وتطهيرًا لنفوسهم من خطاياهم. وفي الحق كان تفكيرًا عظيمًا، فإن هذه المعارك- ولا سيما الطرف الأغر- تعتبر بحق لدى كل من يرنو ببصره إلى تحقيق مجد بحري أو بطولة عسكرية أعمالًا مجيدة لا نظير لها في تاريخ الإنسانية.

U U U

فصل فيما يخص البحار الأعظم

منذ بدء الوجود

في هذا الضرب من الكتابة لا يستطيع الإنسان مهما يكن تصميمه أن يلتزم السياق الرئيسي للقصة أن يتجنب المغريات التي تستثيرها في نفسه بعض الحوادث الثانوية، فإن لها طلاوة تستهوي النفس وتأسر اللب لا يمكن مقاومتها، فإذا تقبل القارئ مني هذا الشرود ولزم صحبتي وتابعني فيه فما أسعدني بهذا، وعندئذ يستمتع معي بهذا السرور الذي يقول الخبثاء إنه يصحب الخطيئة، ذلك أن الشرود والانحراف هما في الكتابة الأدبية خطيئة.

قد يكون من فضول القول أن أعيد هنا أن المخترعات الحديثة في عصرنا قد أحدثت تغيرًا في فنون الحرب البحرية إلى حد يشبه ما أحدث من ثورة في جميع فنون الحرب دخول البارود لأول مرة في أوروبا مستوردًا من الصين. والأسلحة النارية الأوروبية الأولى كانت أسلحة بدائية غليظة،

وكما هو معروف كان يصحبها دائمًا عدد غير قليل من الفرسان، إذ كان ينظر إليها على أنها أداة حقيرة لا يلجأ إلى استعمالها إلا أصحاب الحرف الذين لا يجدون في أنفسهم الشجاعة الكافية لمصاولة السلاح بالسلاح في مبارزة سافرة وجهًا لوجه مع الخصم، وكما أن مجد الفروسية على البر- على الرغم من أن بهاءه القديم قد تضاءل وانتقص رونقه- فإنه لم يختف كلية بل بقيت آثاره حية في نفوس الفرسان، فإنه في البحرية أيضًا جرى عليه ما جرى على الأرض، فإنه على الرغم من أن بعض مظاهر الفروسية التي كانت تأخذ مجراها في البحر قد أصبحت اليوم في القتال وسائل قديمة عفى عليها الزمن باعتبارها عسيرة التطبيق في ظل الظروف المتغيرة، فإن صفات البطولة المتفردة التي تميز بها الأبطال البحريون من أمثال دون جون النمسوي، ودوريا، وفان ترومب، وجان بارت، وغيرهم من الأبطال العديدين من قادة البحر البريطانيين، وديكتاتور الأمريكي بطل معارك سنة ١٨١٢، لم تختف من الوجود ولم تصبح نسيًا منسيًّا على الرغم من الحوائط الخشبية.

ومهما يكن من أمر فقد يكون مما يغتفر لدى أي إنسان يقدر الحاضر قدره دون أن ينتقص الماضي قيمته أن يرى جسم سفينة نلسون القديمة «فيكتوري» المستقرة في عزلتها في بورتسموث وقد أنزلت إلى البحر هناك لا كأثر مهدم لمجد خالد لم يتغير فحسب بل أيضًا كملاحاة شعرية بينها وبين سفن المونيتور وغيرها من السفن الأوروبية الفخمة الهيكل المصفحة بالحديد، ملاحاة يهوِّن من وقعها دقة تكوينها وتناسق تركيبها.

ولسنا نطلب ذلك لأن هذا النوع من السفن قد عزت رؤيته، أو لأن

هذه السفن ينقصها التناسق والطراز العظيم الذي بنيت على نسقه السفن الحربية القديمة، الأمر الذي لا يمكن تلافيه، بل لهذا ولأسباب أخرى لا تقل قيمة عما ذكرنا.

وثمة فريق من الناس وإن كانوا ليسوا متبلدي الحس كلية لمثل هذه الملاحاة الشعرية التي أشرنا إليها إلا أنهم في كل ما يتصل بالنظام الجديد يميلون إلى الحيلولة دون مثل هذا التصور ويبالغون في هذا الأمر إلى حد تحطيم الصور إذا دعا الأمر. ومن قبيل هذه المغالاة أن مجرد مشاهدتهم للنجمة الموضوعة على ظهر السفينة «فيكتوري» لتحدد البقعة التي سقط فيها البحار العظيم يدفع هؤلاء النفعيين من العسكريين إلى إثارة ضروب من الاعتبارات؛ منها أن إعلان نلسون عن شخصه بظهوره وسط المعركة بملابسه الرسمية ونياشينه لم يكن عملًا لا تدعو إليه الضرورة فحسب، بل لم يكن من العسكرية في شيء وإنما كان مجازفة حمقاء وغرورًا. ويستطردون ليضيفوا أن مثل هذا العمل في معركة الطرف الأغر بالذات لا يخرج عن كونه تحديًا للموت وقد تحداه الموت وغلبه، وإنه لولا هذه المجازفة البطولية لكان من الممكن أن يبقى البحار البطل حيًّا بعد المعركة. ولاستطاع هو نفسه بعد أن تقرر مصير المعركة أن يقود أسطوله المشتت إلى موانئه بدلًا من أن يترك أوامره الحكيمة ليلغيها خليفته المباشر في قيادة الأسطول. ولو قدر له أن يبقى لكان في الإمكان تفادي الخسارة الفادحة المحزنة في الأرواح نتيجة لغرق السفن في العاصفة الهوجاء التي هبت في البحر بعد انتهاء المعركة العسكرية. على أننا إذا غضضنا الطرف عن النقطة الخلافية التي يثور كثير من الجدل حولها وهي أكان في

الإمكان لأسباب متعددة تذكر أن ينقذ الأسطول ويقاد إلى مرافقه، الأمر الذي يؤكده النفعيون من رجال الحرب من أنصار بنتام لأسباب مقبولة في ظاهرها. على أن ما كان يمكن أن يكون ليس إلا أساسًا واهيًا لا يصلح للبناء عليه. ومهما يكن من شيء فالمقطوع به أنه في تقرير شئون الحرب الكبرى التي تقتضي بصيرة نافذة، وفي الإعداد الحريص للمعارك الفاصلة الذي يقتضي تحديد المسالك المهلكة ورسم خطة الخوض فيها كما حدث في كوبنهاجن، لم يكن لهذا المغامر المجازف بالإعلان عن شخصيته في القتال قرين في حرصه وعنايته الدقيقة بالإحاطة بكل صغيرة وكبيرة اللهم إلا قلة قليلة من القواد العظام.

التزمّت والحرص الشخصي مهما تكن دوافعهما لا تمت بصلة إلى اعتبارات أنانية، ليسا على أية حال من فضائل الرجل العسكري التي يذكر بها، على حين أن المغالاة في حب المجد التي تحرك في النفس دافعًا أقل اتقادًا هو التفاني الأمين في أداء الواجب تعتبر الفضيلة الأولى في الرجل العسكري. وإذا كان اسم ولنجتون لا يثير ذكره في نفوس الناس من الإكبار ما يثيره اسم نلسون على بساطته فمرد ذلك إلى السبب الذي ذكرناه آنفًا. والفرد تنسون في مرثيته الشعرية للمنتصر في واترلو يوم وفاته لم يغامر بأن ينعته بأعظم جندي على الزمان، على حين أنه في المرثية نفسها لقب نلسون بأنه أعظم بحار منذ بدء الوجود.

لقد جلس نلسون قبيل بدء القتال في معركة الطرف الأغر وكتب وصيته القصيرة وعهده الأخير. وإذا كان نلسون تحت تأثير إحساس باطن بأن أعظم انتصاراته قدرًا ستتوج بموته ميتة مجيدة مشرفة قد حملته دوافع

دينية على أن يزين نفسه بنياشينه وجواهره التي تشهد بأعماله المشرفة. وإذا كان الأمر كذلك وكان تزيينه لنفسه تهيئة لها للذبح والفداء ليس إلا من قبيل التباهي والخيلاء فإن التصنع والمباهاة لكل منهما دوره البطولي في الملاحم والدراميات، ذلك أن الشاعر في مثل هذه الأدوار يجهد نفسه ليجسد في شعره المشاعر السامية، تلك التي استطاعت طبيعة كطبيعة نلسون حين أتيحت لها الفرصة أن تترجمها من شعور إلى أعمال حية.

U U U

أجل لقد أخمدت الثورة التي اندلعت في نور، ولكن إخمادها لم يعن القضاء على كل سوأة أو مظلمة وإذا كان المتعهدون لم يعد يسمح لهم بأن يمارسوا حيلهم المألوفة والتي هي طابع هذه الجماعة من الناس في كل مكان كأن يقدموا قماشًا من صنف رديء أو تموينًا فاسدًا أو ناقصًا في الوزن، فالتجنيد الإجباري للبحرية مثلًا- وهو أحد المظالم التي كانت موضع الشكوى- ظل ساريًا إلى غيره من المظالم التي لم ترفع. على أن هذا التجنيد الإجباري كوسيلة لتموين البحرية بالرجال كان تقليدًا رسخ بحكم العادة منذ قرون وأيده القانون بحكم من قاضي القضاة. هذه الوسيلة التي أصبحت الآن موقوفة التنفيذ وإن لم تلغ كلية بصفة رسمية لم يكن من الميسور عمليًا العدول عن تطبيقها في تلك الأيام. ذلك أن إلغاءها كان من شأنه أن يشل حركة الأسطول الذي لا يمن أن يستغنى عنه سيما والأساطيل في تلك الأيام كانت تعتمد في سيرها على الأشرعة؛ إذ لم يكن

البخار حينئذ مستخدمًا، ومن ثم كانت أشرعتها المتعددة ومدافعها التي تعد بالألوف في حاجة إلى السواعد القوية لتعمل؛ فالقوة البشرية كانت قوام كل شيء. يضاف إلى هذا أن الأسطول في تلك الأيام كان متعطشًا إلى مزيد من الرجال بسبب مضاعفته لسفنه من جميع الأنواع ليواجه بها المخاطر الحاضرة والمستقبلة التي كانت تصبها عليه القارة الثائرة.

لقد سبق الثورتين شعور بالسخط وعدم الرضا كما تلاهما نفس الشعور على نطاق متفاوت يزيد وينقص ولكن في خفاء مستور، ومن ثم لم يكن مجافيًا للمنطق أن يتوقع المسئولون عودة هذه الانتقاضات بصورة عامة أو على هيئة مناوشات فرعية. ومن أمثلة هذا التوقع ما حدث في السنة نفسها التي وقعت فيها حوادث هذه القصة، فقد كان نلسون في عرض البحر على مقربة من الشاطئ الإسباني مع الأسطول، وكان إذ ذاك لم يزل سير هوراشيو نائب أمير البحر، وهو في مكانه هذا تلقى تعليمات من أمير البحر الذي يقود الأسطول أن ينقل قيادته من السفينة كابتن إلى السفينة ثيسيوس، وكان السبب الذي من أجله طلب إليه الانتقال هو أن هذه السفينة الأخيرة قد وصلت إلى هذه المحطة قادمة من الوطن حيث اشتركت في الثورة الكبرى في نور وكان الخطر متوقعًا من سلوك البحارة، وقد رؤي أن ضابطًا كنلسون حين يلي أمر هذه السفينة لن يكون الجلاد الذي يرهب هؤلاء البحارة ويفرض عليهم الخضوع الذليل، بل سيكون الرجل الذي يكسب قلوبهم وطاعتهم لمجرد وجوده بينهم بشخصيته الفذة ويعيدهم إلى الولاء إن لم يكن في حماسة ولائه فعلى الأقل في صدقه وإخلاصه.

والحق أن القلق والتوقع قد سادا أكثر من سفينة لفترة ما، ومن ثم اتخذت احتياطات للمراقبة وشددت الحراسة ضمانًا لعدم النكسة، وكانت الدعوة لمواجهة المعارك تأتي قبل وقوع المعركة بفترة قصيرة، وكانت المعركة حين تقع يجد الضباط المنوطون بقيادة المدفعية من واجبهم في بعض الحالات أن يقفوا شاهري السلاح خلف الجند الذين يطلقون المدافع.

وكانت الحال على ظهر السفينة ذات المدافع الأربعة والسبعين التي يهز فوق سطحها الآن بيلي بد سريره لا توحي للمراقب العادي بأن حادث الثورة الكبرى كان قريب عهد، فلا شيء في سلوك رجال البحر ينبئ بذلك ولا شيء في ملامح الضباط ينم عن هذا الحدث... والواقع أن ضباط أي سفينة بحرية سواء في تصرفاتهم العامة أو سلوكهم يستوحون في طبيعة الحال أسلوبهم في المعاملة من أسلوب قائدهم وطريقته؛ ذلك إذا كان هذا القائد يتميز بسمو الشخصية التي ينبغي أن يتميز بها كل قائد.

وقد كان قبطان هذه السفينة التي حل عليها بيلي هو صاحب الفخامة السيد إدوارد فيرفاكس ڤير إذا أردنا أن نذكر اسمه بالكامل وقد كان ڤير رجلًا أعزب في الأربعين من عمره أو ما يقرب من ذلك، وكان بحارًا ممتازًا على الرغم من أنه كان يعيش في عصر يعج برجال البحر المشهورين، وهو وإن يكن يمت إلى طبقة النبلاء الرفيعة إلا أن تقدمه في البحرية وارتقاءه فيها لم يكن يمت بسبب إلى نفوذ هذه الطبقة وتأثيرها، فقد شهد أعمالًا بحرية كبيرة وخدم في معارك متنوعة خرج منها جميعًا مذكورًا بأنه ضابط بحري همه رعاية صالح بحارته والحدب عليهم دون أن يتسامح قيد أنملة

في أي خرق للنظام والطاعة، وهو واسع الاطلاع شديد التمرس بعلوم البحار وشئون البحرية، مقدام إلى حد المغامرة ولكن في غير تهوس، ومن أجل ما أبداه من شجاعة وإقدام في مياه الهند الغربية كحامل للعلم تحت قيادة الأميرال رودني الذي توجه بالنصر العظيم على ديجراس، رقي إلى وظيفة قبطان.

ومن النادر أن يستطيع إنسان أن يميز ڤير على الشاطئ وهو في ملابسه المدنية ويأخذه على أنه من رجال البحرية؛ ذلك لأن ڤير يتحاشى بصفة خاصة أن يطعم حديثه الذي لا يمت إلى عمله الرسمي بصلة بشيء من المصطلحات البحرية، وهو فوق هذا رزين في مظهره لا يبدي شيئًا من المرح ولا يقدر هذا المرح إلا قليلًا، فلم يكن من الغريب ولا من الخروج على مألوف هذه الصفات أنه حين يكون في رحلة بحرية ولا يستدعي الأمر مشاركته الفعلية أنه كان أقل الناس حبًّا للظهور أو التظاهر. والواقع أن أي مسافر عادي إذا لاحظ هذا السيد الذي ليس بادي الضخامة والذي لا يحلي صدره بشارات أو أوسمة تدل على مركزه، يخرج من قمرته إلى السطح المكشوف، وشاهد في الوقت نفسه التحيات الصامتة التي يؤديها الضباط وهم يتنحون من طريقه إلى الجانب المسقوف من السفينة لخيل إليه أنه ضيف شرف على السفينة مدني من رجال الملك حملته السفينة على ظهرها أو أنه مبعوث سام ذو مقام رفيع في طريقه لشغل منصب كبير.

ومهما يكن من شيء فالحقيقة أن هذا التنحي عن فرض مظهره على الناس صادر عن تواضع طبيعي غير مصطنع تتميز به الرجولة التي تنفرد باستقامة حاسمة؛ تواضع يلازم الإنسان في كل وقت ولا يقصد به جلب

منفعة أو توجيه النظر إليه، تواضع يتحلى به الإنسان في كل مرتبة من مراتب الحياة فينم عن فضيلة أصيلة في طبعه وعن عراقة كريمة في حسبه.

والقبطان ڤير شأنه في هذا شأن غيره من المشتغلين في نواحي النشاط التي تتميز بالبطولة في شتى مناحي الحياة. كان على الرغم من أنه عملي النزعة بقدر كاف حين تدعو المناسبة إلى ذلك كان يجنح في بعض الأحيان إلى الناحية الحالمة؛ فقد تراه واقفًا وحده على سطح المركب ممسكًا بإحدى يديه بحبال المركب ومحملقًا بعينيه في شبه غيبوبة حالمة في البحر المنبسط أمامه، وحين يقطع تأملاته ويبت حبل تفكيره بعرض بعض الأمور التافهة عليه، وهو في وقفته هذه يثور مرجل غضبه ولكنه لا يلبث أن يتحكم في ثورته، ويكبح جماح غضبه.

وكان القبطان ڤير مشهورًا في البحرية باسم ستاري[1] ڤير، ولكن كيف حدث أن اقترن هذا اللقب برجل، مهما قيل في صفاته القوية، لم يكن ذا جوانب لامعة ممتازة، لهذه التسمية قصة نذكرها فيما يلي:

كان للقبطان ڤير قريب محبب إليه هو اللورد دنتون، وهو رجل طلق النفس فيه مرح، وقد حدث أن كان أول شخص لقي ڤير بعد عودته من رحلة الهند الغربية إلى إنجلترا وهنأه بما أحرز من فوز، ومن المصادفات أنه في اليوم السابق على هذا اللقاء كان يقلب صفحات ديوان أندرو مارفن الشاعر فوقع نظره- ولم يكن ذلك لأول مرة- على أبيات له عنوانها بيت أبلتن وهو اسم مقر أحد أسلافهما العظام، وكان من أبطال الحرب

(١) Starry ستاري معناها النجم اللامع.

الألمانية في القرن السابع عشر وقد ورد في هذه القصيدة الأبيات الآتية التي معناها... ذلك لأنه نشئ منذ البداية في بيت كأنه الجنان وأخذ بحزم النظام والطاعة في رعاية الفير فاكس وستاري ڤير.

وقد طافت بذهنه هذه التسمية وهو يعانق ابن عمه وقد وصل لتوه بعد أن شارك في النصر المؤزر الذي أحرزه رودني وكان له فيه دور اتسم بالبطولة والإقدام، فصاح وقد غمرته الفرحة بما أحرزه بحار الأسرة من مجد وفخر لها «أقر الله عينك يا إدوارد وزادك فرحة أي ستاري ڤير- أيها النجم- اللامع» وشاعت هذه القصة وتداول الناس هذا اللقب الجديد واستخدمت هذه الكنية في الأحاديث الخاصة للتمييز بين قائد الأندوميتابل القبطان ڤير وبين قبطان آخر بهذا الاسم ولكنه أقدم رتبة من ڤير وقريب له من بعيد، وظلت هذه التسمية لاصقة به حتى ثبتت مع الأيام.

ولما كان للقبطان ڤير قائد السفينة الأندوميتابل دور ملحوظ في المشاهد التي ستلي عاجلًا فقد يكون من المستحسن أن نكمل جوانب الصورة التي رسمنا هيكلها في الفقرة السابقة، والقبطان ڤير- بغض النظر عن صفاته كضابط بحري- كان شخصية فريدة؛ فهو على العكس من كثير من رجال البحرية الإنجليزية المشهورين لم تستغرق الخدمة الطويلة الحافلة ولا الإخلاص المنقطع النظير لأعمال البحرية كل جوانب هذا الإنسان ولا امتصت كل نشاطه؛ فقد كان له ميل ملحوظ للنواحي العقلية والثقافية، كان محبًّا للكتب لم يخرج إلى البحر مرة قط دون أن يتزود بمكتبة جديدة عامرة محدودة نوعًا ما ولكنها منتقاة من خير الكتب وأحسنها. وأوقات الفراغ التي كانت تصادف القباطنة في بعض الأحيان

وهم في عزلتهم البحرية حتى ولو كانوا في رحلة حربية كانت تملأهم سأمًا وملالًا، أما ڤير فلم يشعر قط في أية رحلة بالسأم والملل. ولم يكن لڤير هذا الذوق الأدبي الذي يعني بالمحتوى أكثر مما يعني بالموضوع، بل كان غرامه بهذا النوع من الكتب الذي يميل إليه عادة ذوو العقول الجادة من الطبقة الممتازة الذين يشغلون مناصب فعالة ذات السلطان في هذا العالم. هذا النوع من الكتب الذي يعالج حياة الرجال والحوادث أيًا يكون عصرها، هذا النوع من الكتب الذي يعني بالتاريخ وحياة الرجال والكتاب الأحرار من أمثال مونتيني الذي سلم من أسر التقاليد والأعراف؛ ففلسف الحقائق وواقع الأمور بروح من الفهم الواعي.

وقد وجد ڤير في هذا الحب للقراءة تثبيتًا لأفكاره المحافظة؛ تثبيتًا حاول عبثًا أن يلتمسه في أحاديثه مع الناس؛ فهو بهذه القراءات التي مست كل معظم الموضوعات الأساسية قد كون لنفسه بعض المعتقدات الإيجابية مما أحس من قبل أنها ستتركز في نفسه دون أن يمسها تعديل في جوهرها طالما أن ذكاءه لم يصبه ركود. أما من ناحية الفترة المضطربة التي ألقت به المقادير فيها فقد كانت خيرًا له، فإن معتقداته المستقرة كانت بمثابة السد الذي حماه من طغيان أمواج الأفكار الجديدة الغازية سواء أكانت اجتماعية أم سياسية أم غير ذلك؛ تلك الأفكار التي اجتاحت في طريقها وهي مندفعة كالسيل غير قليل من أصحاب العقول الناضجة في تلك الأيام وهي عقول لا تقل بالطبيعة عن عقله. وإذا كان بعض أفراد الطبقة الأرستقراطية التي ينتمي إليها بحكم المولد قد ثاروا على المجددين لأن أفكارهم ونظرياتهم كانت في أساسها معادية للطبقات

الممتازة فإن القبطان «ڤير» عارض أفكارهم في غير مبالاة لأن نظرياتهم كما بدا له لا يمكن أن تستقر في مبادئ وتعاليم ثابتة ليس هذا فحسب، بل لأن هذه النظريات حرب على سلام العالم وعلى رفاهية المجتمع بأكمله.

وقد كان الضباط العظام في البحرية الذين من رتبته والذين يقلون عنه سعة اطلاع وحماسة للمعرفة ممن يختلطون به أحيانًا بحكم الظروف يرون فيه نقصًا ملموسًا في صفاته الاجتماعية ويقولون عنه إنه سيد متجاف منطو على كتبه، وفي بعض الأحيان حين ينسحب «ڤير» مصادفة من اجتماعه بهم قد يقول أحدهم لصاحبه شيئًا من هذا القبيل: «إن ڤير رجل نبيل أعني «ستاري ڤير» وعلى الرغم من النشرة العسكرية فإن سير «هوراشيو» ليس في الحقيقة أفضل منه محاربًا أو بحارًا ولكن بيني وبينك ألا ترى معي أنه يجري في عروق ڤير شيء من الحذلقة العلمية، أجل إن هذه الحذلقة غريبة فيه كخيط النسيج الممتاز وسط لفة من حبال البحرية الخشنة».

الحق أنه كانت هناك أسباب ظاهرة تستدعي هذا النوع من النقد الخفي؛ ذلك أن حديث القبطان ڤير كان خلوًا دائمًا من الفكاهة تلك التي تغلب عادة على أحاديث الضباط، وأزيد من ذلك أنه كان حين يحتاج لتوضيح نقطة تمس شخصية من الشخصيات اللامعة أو الحوادث الجارية كان يجنح دائمًا إلى اقتباس شخصية تاريخية أو حادثة قديمة كتلك التي يتحدث عنها من بين المعاصرين دون أي مراعاة لظروف المتحدث إليهم ولا مطابقة الكلام لحالهم، ومثل هذه الاقتباسات من التاريخ القديم مهما تكن قيمتها في واقع الأمر كانت تبدو لجماعة الضباط الذين لم تصقلهم

المعرفة غريبة على أسماعهم لا سيما وهم رجال كل قراءاتهم محصورة في النشرات العسكرية ولكن مثل هذه الاعتبارات ليس من السهل مراعاتها من جانب ذوي الطبائع التي تشبه في تكوينها تكوين القبطان ڤير؛ ذلك أن حرصهم على الأمانة يحملهم على الصراحة المتناهية التي قد تجاوز الحدود في بعض الأحيان كما تجاوز الطيور المهاجرة في ترحالها حدود البلدان دون شعور أو مبالاة.

أما الملازمون وغيرهم من الضباط الرسميين الذين يكونون أركان حرب القبطان ڤير، فليس ثمة ما يدعو إلى التحدث عن أحد منهم بالذات في هذا المقام بل ليس هناك ما يدعو إلى ذكر أي من صف الضباط، ولكن هناك بين الأنفار الممتازين الذين يعتبرون في منزلة ضباط الصف شخصًا له علاقة وثيقة بهذه القصة، ومن ثم فالأمر يستدعي التعريف به وسأحاول رسم صورة له ولكنها لن تكون صورة كاملة لشخصيته. هذا الشخص هو جون جلاجارت مدرب السلاح ولكن هذا اللقب البحري قد يبدو لرجال الأرض غامضًا، ذلك أن وظيفة هذا النفر الممتاز كانت في الأصل بلا شك تعليم رجال البحرية كيف يستخدمون الأسلحة والسيوف والخناجر ولكن منذ زمن طويل جدًا وتبعًا للتقدم في استخدام المدفعية وصناعتها أصبح الالتحام بين البحارة وجهًا لوجه ويدًا بيد قليل الحدوث جدًا وأصبحت السيادة في المعارك البحرية للنترات والكبريت والمفرقعات وانزوى السلاح، ومن ثم توقفت أعمال هذه الوظيفة الأصلية وأصبح مدرب السلاح في أي بارجة حربية ضخمة مجرد رئيس للشرطة يعهد إليه إلى جانب مهام أخرى بواجب صيانة النظام على سطوح المدفعية السفلى

الكثيفة ببحارتها.

وكان كلاجارت هذا رجلًا في حوالي الثلاثين من عمره نحيفًا طويلًا مقبول الشكل على العموم وكانت يده قصيرة جدًا ولكن مظهرها يدل على أنها اعتادت الأعمال الشاقة وكان له وجه مميز وملامحه كلها فيما عدا الذقن متناسبة كتلك الصور المحفورة على الميداليات الإغريقية، أما الذقن فكان أجرد كذقن تيكومش[١] وكان مفرطحًا وبارزًا مما يعيد إلى الذهن صورة الأب المحترم الدكتور تيتس أوتس[٢] الذي قدم الدليل التاريخي المكتوب في عهد شارل الثاني مع التفصيلات الكنسية على زيف المؤامرة البابوية المزعومة. ومما ساعد كلاجارت في وظيفته أن له عين المدرب الفاحصة وكان حاجبه من هذا النوع الذي ينم عن مستوى من الثقافة أعلى من المستوى العادي أخذًا بالمقاييس القائمة على دراسة قسمات الوجه للتعرف على المواهب العقلية، وقد كان الحاجب كث الشعر مجعدًا ناعمًا كالحرير أسود فاحمًا، وكان بذلك فاصلًا مميزًا بين لونين متضاربين: السواد والصفرة التي تعلو وجهه، صفرة تشوبها ظلال خفيفة كلون العنبر قريبة الشبه بالرخام المعروق القديم، وكانت بشرته هذه الفريدة تقف على طرفي نقيض مع البشرات الأخرى الوردية أو البرونزية التي تميز وجوه البحارة جميعًا، وقد يرجع لونها هذا جزئيًا إلى أن وظيفته تفرض عليه العزلة عن ضوء الشمس ومع أن منظرها لم يكن مقبضًا إلا أنه كان دالًّا على أن هناك شيئًا عليلًا أو شاذًا في تكوينه ودمه.

---

(١) Tecumsch.

(٢) Titus Oatés.

بيد أن منظره بصفة عامة وسلوكه كانا يوحيان بأنه على قسط من التربية والتعليم وله خبرة لا تتناسب مع وظيفته البحرية الحالية إلى حد أنه لو لم يكن مشتغلًا بهذه الوظيفة لبدا للناظرين أنه رجل ذو صفات ممتازة اجتماعيًا وخلقيًا اضطر لأسباب خاصة أن يعيش متخفيًا! على أن شيئًا ما لا يعرف عن حياته الأولى قبل مجيئه إلى البحرية، قد يكون رجلًا إنجليزيًا ولكن في نبرات حديثه وطريقة نطقه ما ينم على أنه قد لا يكون كذلك بالمولد وإنما اكتسب هذه الجنسية بالتوطين منذ طفولته الباكرة.

وقد سرت إشاعة مهموسة في الخفاء خرجت من ثرثرة بعض عجائز البحر في سطح المدافع وفي برج السفينة أن مدرب السلاح كان فارسًا تطوع في خدمة بحرية جلالة الملك بعد تسويته لقضية غش اتهم فيها وقدم للمحاكمة. على أن هذه الإشاعة وإن أعوزها الدليل المادي لم يمنع ذلك من سريانها سرًّا على أفواه البحارة. ومثل هذه الإشاعة عندما تبدأ فوق أسطح المدافع إذا كانت تتصل بأحد ممن دون صف الضباط رتبة لا تعدم من يصدقها ويؤمن على صحتها من بين نوتية السفينة الحربية كبار السن الذين يتظاهرون عادة بالعلم ببواطن الأمور.

والحق أن رجلًا له مزايا كلاجرات وليست له سابقة تجربة بالخدمة البحرية حين يدخل البحرية في سن النضوج ويبدأ العمل فيها بالضرورة في أدنى المراتب، رجلًا مثله لم يشر إطلاقًا إلى حياته السابقة على البر من شأن ظروفه هذه مع انعدام الحقائق الدقيقة عن ماضيه أن تفتح الباب على مصراعيه للألسن الشريرة أن تتناوله بالتجريح والانتقاص.

على أن الثرثرة التي كانت تتناوله في ساعات الفراغ كان لها بعض ما

يؤيدها من ظروف الحال في البحرية في تلك الأيام وما سبقتها فقد كانت البحرية لا تلتزم الدقة في تجنيد بحارتها ولا في تخيرهم، فقد كان على ظهر سفنها بعض رجال العصابات المشهورين، إما يمخرون عباب البحر وإما في انتظار دورهم للإبحار على البر. ولم يكن خفيًا ولا سرًّا أن رجال البوليس في لندن كانت لهم الحرية المطلقة في أن يقبضوا على القادرين من المشتبه فيهم أو المتهمين ويرحلوهم بعد إجراءات شكلية قصيرة إلى السفن البحرية في الأسطول ليعملوا فيها أو إلى مرافئ هذه السفن؛ وأكثر من ذلك كان حتى في قوائم المتطوعين للعمل في البحرية بضع حالات لم يكن الدافع فيها على التطوع حب الوطن، لا ولا الرغبة في تجربة الحياة في البحر والمغامرات البحرية، فالمدينون من صغار الناس الذين كانوا يعجزون عن سداد ديونهم والعاجزون عن القيام بالتزاماتهم المالية أو الأدبية كانوا يجدون في التطوع في البحرية ملجأ أمينًا مريحًا، نعم كانت البحرية ملجأ أمينًا لأن من يدخل في خدمتها ويصعد فوق إحدى سفن جلالة الملك يصبح في حمى ومناعة من أي شيء، مثله في ذلك مثل المذنب أو العادي على القانون الذي كان في القرون الوسطى يتعلق بأستار المحراب في الكنيسة، فيجد الحماية والأمن. ومثل هذه المخالفات المسكوت عنها التي لم تكن الحكومة لتفكر في الإعلان عنها أو إذاعتها في ذلك الوقت لأسباب لا تخفى، ونتيجة لهذا الإغفال المتعود ولأن هذه المخالفات لا تمس إلا ذلك الجانب من البشرية الذي ليس له نفوذ ولا تأثير فقد عفى عليها النسيان ولكنها مع ذلك تلقي ظلًّا على أشياء لا أستطيع أن أجزم بصحتها أو أقيم الدليل عليها، ومن ثم أكاد

أتردد في ذكرها، أشياء أذكر أني رأيتها مطبوعة في كتاب ما قرأته ولو أني قد أنسيت هذا الكتاب الآن ولا أكاد أذكره، ومع ذلك فهذه الأشياء التي ضمها ذلك الكتاب قد نقلت إليّ شخصيًا منذ أربعين عامًا حدثني بها أحد المتقاعدين من الخدمة من الطاعنين في السن؛ فقد جرى لي معه حديث مهم في جرينتش على الشرفة، وكان هذا المتقاعد زنجيًّا من بلتيمور من الذين شهدوا معركة الطرف الأغر وكان مجمل كلامه فيما أذكر على الوجه الآتي: لقد كانت السفن الحربية حين تعوزها الأيدي العاملة ويتحتم عليها أن تبحر على وجه السرعة تلجأ إلى استكمال حصتها الناقصة من الرجال إن لم تتوافر لها وسائل أخرى طيبة لهذا الاستكمال إلى زيادة حصيلتها من الرجال بعدد تختاره مباشرة من بين نزلاء السجون وهذه الرواية ربما كان من غير اليسير في هذه الأيام الحاضرة أن نتثبت من صحتها أو عدم صحتها للأسباب نفسها التي سبق أن أشرت إليها، ومع ذلك لو سلمنا بصحة هذه الرواية فلنا أن نتساءل على أي صورة مميزة كان الوضع الذي له ما وراءه في مضايق بريطانيا في ذلك الوقت الذي جوبهت فيه بتلك الحروب التي تناوشتها كأنها جماعة من النسور المفترسة هبت مسعورة من بين الضجيج والعجيج الذي أحدثه سقوط الباستيل، ذلك العهد يبدو بالقياس لنا نحن الذين نرجع البصر إلى حوادثه ونقرؤها، يبدو لنا واضحًا ولكنه في نظر أجدادنا ذوي اللحى البيضاء، وفي القليل لذوي الزكانة منهم تمثل عبقرية هذا العهد مظهرًا كذلك المظهر الذي صوره الرسام البرتغالي «كاميون» في لوحته المشهورة روح الرأس[1] تهديدًا منذرًا بالخسوف

(١) روح رأس الرجاء الصالح.

غامضًا خارقًا للعادة في كمه وكيفه؛ وأمريكا نفسها لم تعف من هذا القلق؛ فعندما بلغت فتوحات نابليون- التي لم يسبق لها نظير- ذروتها كان بعض الأمريكان من الذين اشتركوا في القتال في موقعة بنكرهيل يخشون ألا يقف المحيط الأطلسي حائلًا دون تنفيذ الخطط النهائية لهذا الضابط الفرنسي المغامر، الخارقة أعماله الذي لمع فجأة من وسط الركام والفوضى التي أحدثتها الثورة الفرنسية، والذي بدا من أعماله أنه جاء محققًا للقضاء الذي جاء في نبوءات يوحنا الواردة في الكتاب المقدس[1].

ومع ذلك فإن الأحاديث التي كانت تدور على سطح المدافع وتمس كلاجارت ينبغي أن تؤخذ بأقل قسط من التصديق إذا أخذنا في اعتبارنا أن رجلًا في مثل منصبه هذا على ظهر سفينة حربية لا يمكن أن يأمل بحال أن يكون محبوبًا من البحارة، يضاف إلى هذا أن البحارة شأنهم في ذلك شأن رجال البر يميلون إلى المبالغة والتزيّد في تعليقاتهم المحطة من شأن مَن بينه وبينهم خصومة أو كراهية لأي سبب من الأسباب أو لا لِسبب. ومهما يكن من أمر فإن ما كان يعرفه بحق بحارة السفينة البحرية «أندوميتابل» عن أعمال مدرب السلاح قبل التحاقه بخدمة البحرية لا يزيد على ما يعرفه الفلكي عن رحلات أي نجم قبل أن يرقب ظهوره لأول مرة في السماء.

والقرار الذي انتهى إليه في شأن كلاجارت ثرثارو البحر والمتعالمون من البحارة قد وصلوا إليه عن طريق الكشف عن الآثار الخلقية التي تركها الرجل في نفوس هذه الطبائع الخالية القليلة التي لا تتجاوز مفاهيمها

(١) ينظر في الكتاب المقدس.

بالضرورة لشرور الإنسانية أضيق الحدود فهي لا تعدو أفكارًا عن الجرائم السوقية كلص بين الأسرة المعلقة خلال نوبة الحراسة الليلية أو سماسرة بيع الرقيق أو المحتالين من لصوص الموتى.

على أية حال فلم يكن الأمر من ناحية كلاجارت مجرد ثرثرة كله. بل كانت هنالك هذه الحقيقة وهي أنه على الرغم مما سبقت الإشارة إليه من صفات كلاجارت فإنه حين التحق بالبحرية دخلها مستجدًا وعين في أدنى الأعمال منزلة في صفوف البحارة، وإنه قبل هذه الحِطة ولكنه لم يستمر طويلًا في هذه الأعمال الدنيا، فإن كفايته الممتازة التي سرعان ما أظهرها وقوة جلده ومثابرته وعمله لنيل الحظوة لدى الرؤساء والخضوع لهم، إلى جانب عبقرية نادرة كاشفة ظهرت آثارها في حادثة فريدة، وفوق ذلك كله روح وطنية خالصة، أهلته للترقية فجأة إلى وظيفة مدرب السلاح.

ويتبع هذه الوظيفة وظيفة رئيس البوليس البحري في السفينة «أومباشية» السفينة كما يسمونهم، وهم بذلك مرءوسوه المباشرون المطيعون لأوامره، وقد كانوا في طاعتهم له مسرفين في هذه الطاعة كما هو المشاهد في بعض إدارات الأعمال على البر بين المرءوسين والرئيس؛ فالمرءوسون يخضعون للرئيس إلى حد يتنافى مع الكرامة. ومهما يكن من شيء فرئيس البوليس له سلطات واسعة وتحت يده وسائل سرية واسعة النطاق ذات تأثير عميق يمكن إذا استخدمت بدهاء عن طريق أعوانه أن تسبب المتاعب لأي من بحارة السفينة إن لم يكن أسوأ من ذلك.

كانت الحياة في السارية العليا الأمامية ملائمة كل الملاءمة لبيلي بد، فبحارة هذه السارية حينما لا يكونون مشغولين بالعمل في القلوع

في أعلى السارية- وهي حرفة تحتاج إلى أن يتخير القائمون عليها من المتميزين بالفتوة والنشاط- يكونون فيما بينهم في أوقات الفراغ ناديًا هوائيًا يسمرون فيه ويسترخون متكئين على وسائد من القلوع الصغيرة الملفوفة ويقص بعضهم على بعض حكايات عن مغامراتهم كما كانت تفعل الآلهة حين تستسلم إلى الكسل، وفي أغلب الأحيان كانوا يتسلون بإمتاع النظر بما يدور في الدنيا من تحتهم في الأسطح السفلى التي تعج بالنشاط والحركة. ولا عجب والحال هذه أن يستشعر فتى في ريعان شبابه- له ما لبيلي بد من شخصية وقدرة- الرضا والقناعة بالحياة في مثل هذا المجتمع؛ فقد كان بيلي بد لا يسيء إلى مخلوق قط ولا يصدر عنه ما قد يكون سببًا لتعكير صفو أحد. كان دائمًا على أهبة الاستعداد لتلبية أي نداء، كانت هذه حاله حين كان يعمل في خدمة السفينة التجارية. أما وقد التحق بالسفن الحربية فقد زاد حسه بالواجب ومواظبته على العمل إلى حد كان يثير في بعض الأحيان ضحك زملائه منه بسلامة طوية. هذا الإقبال المتزايد على العمل كان له سبب خاص في نفسه؛ فقد شهد في أول اليوم التالي لتجنيده قسرًا تنفيذ أول عقوبة رسمية وقعت على أحد المجندين في أحد جوانب السفينة، وقد كان أثر هذه العقوبة في نفسه شديد الوقع، هذه العقوبة جلبها على نفسه فتى صغير من المجندين الجدد، أحد حراس المؤخرة؛ فقد غاب عن مكانه المعين له عندما كانت السفينة تقوم بعملية تغيير اتجاهها، وهي مخالفة، يترتب عليها تعويق خطير لهذه العملية التي تتطلب المبادرة السريعة الحازمة في كل دقيقة من دقائقها. وحين شاهد بيلي المذنب عاري الظهر والسياط تجلده وقد تركت آثارها

في ظهره خطوطًا حمراء وندوبًا ممددة، وأسوأ من ذلك حين لاحظ وجه المذنب بعد إطلاقه وقد ارتسم عليه الألم والرعب حين ألقى الجلاد على ظهره القميص الصوفي. كل ذلك دفع بيلي إلى أن يجري مندفعًا بعيدًا عن هذه البقعة ليخفي نفسه وسط هذا الزحام؛ لقد فر خائفًا مذعورًا، وهو في ذعره هذا قطع على نفسه عهدًا ألا يعرض نفسه لمثل هذه العقوبة بسبب الإهمال، بل وصمم ألا يغفل أو يهمل أي شيء يعهد به إليه يمكن أن يناله من وراء إغفاله أو إهماله أي تأنيب أو لوم ولو باللسان. ولا تسل بعد هذا عن مقدار دهشته وقلقه حين وجد نفسه أخيرًا يتورط في بعض المتاعب الصغيرة العارضة كتلك التي تتصل بوضع حقيبته أو بفقد شيء من سريره المعلق، من مثل هذه المسائل التي لا تغفل عنها أنظار «أومباشية» البحر المدققة في الأسطح السفلى والتي من شأنها أن تجلب له نوعًا من التهديد أو الإنذار من أحدهم.

ترى كيف حدث هذا له وهو الحريص المدقق في كل شيء؟ إنه لم يستطع أن يعلل ما حصل ولا أن يفهم سببه وقد جاوز الأمر به حدود الغضب والغيظ. وحين تحدث في شأنه إلى الشبان من زملائه في السارية العليا انقسموا قسمين: فريقًا أظهر في غير مبالاة عدم التصديق، وفريقًا آخر اتخذ من قلقه الذي لم يكن ليخفى مادة للضحك والسخرية، وقال له أحدهم: «أهي حقيبتك يا بيلي التي عبث بها؟ إذن أدخل نفسك فيها يا عزيزي وعندئذ ستتأكد بنفسك ما إذا كان أحد يعبث بها أم لا».

وكان على ظهر السفينة أحد المحاربين القدماء الذين تقدمت بهم السن فأقعدتهم عن تحمل أعباء الأعمال الثقيلة فعهد إليه أخيرًا بمهمة

حراسة السارية العليا الأساسية ليرقب منها دوران العجلة الموضوعة على القضبان حول العمود الكبير بالقرب من سطح المركب. وفي أوقات الفراغ انتهز بيلي الفرصة للتعرف به، وحين حلت به هذه المتاعب بدا له أن يركن إليه طلبًا للنصيحة الحكيمة، وكان هذا المحارب القديم دانمركيًا حكيمًا مسنًّا قد تمرس بالإنجليزية طويلًا إبان خدمته البحرية، قليل الكلام كثير التجاعيد مزدانًا بندوب مشرفة مغضن الوجه ذهبت الأيام بنضارته وأحال الجو لونه حتى أصبحت بشرته كالرق القديم، يحمر وجهه في زرقة داكنة كلما انطلقت قذيفة من مدفع أثناء العمل. وقد كان من رجال السفينة أجاممنون وقد خدم تحت قيادة نلسون قبل سنتين من حوادث هذه القصة عندما كان نلسون لا يزال معروفًا بالسير هوارشيو في تلك السفينة الخالدة في ذكريات البحرية، تلك السفينة التي جردت من معداتها وانتزعت ألواحها ولم يبق منها إلا ضلوعها العارية، والتي يشاهد هيكلها الضخم منقوشًا بيد هيدن. ولما كان هذا المحارب الحكيم أحد بحارة هذه السفينة الخالدة أجا ممنون فقد أصيب بضربة في وجهه متعرجة امتدت من سالفه إلى خده تاركة ندبة مستطيلة باهتة كانت في وجهه الأسود أشبه بخيط نور الفجر ينبثق في الظلمة، وبسبب هذه الندبة وظروف الحادثة التي أصيب بها، بالإضافة إلى لون بشرته الزرقاء الداكنة، أصبح معروفًا لدى بحارة الأندوميتابل باسم سناج السفينة.

وحين وقع نظر هذا الحكيم المتنبئ لأول مرة على بيلي بد بعينيه الضيقتين اللتين تشبهان عيني ابن عُرس «العرسة» خالجه شيء من السرور اهتز له كيانه وانتفضت له كل تجاعيد وجهه العتيقة على صورة غريبة.

ترى أحدث هذا لأنه قد لمس أو رأى بقوة ذكائه الفطري الخارقة في البحار الوسيم أنه وقع على شيء يغاير حاله بيئة السفينة ولا يتمشى معها؟ مهما يكن من شيء فقد عدل هذا العجوز الحكيم من سروره الغامض بعد دراسة ماكرة لهذا البحار الوسيم على فترات، وأصبح حين يلتقي به يبدو في وجهه نظرة فيها شيء من السخرية والتساؤل. على أن هذه النظرة كانت في أغلب الأوقات مؤقتة لا تلبث أن تزول ويحل محلها تعبير ينم عن عمق التأمل، والتساؤل عما يكون مصير هذه الطبيعة وما سوف يحيق بها وقد وقعت في محيط لا يخلو من الحقد والكراهية ووسائل الإيقاع بالبشر والتي لا يغني في التخلص من أحابيلها وحيلها مجرد الشجاعة التي تعوزها التجربة والحنكة وتنقصها وسائل الدفاع الغليظة؛ في محيط البراءة فيه وهي ملاك الإنسان قد لا تشحذ الملكات ولا توقد العزمات دائمًا في مواجهة المواقف والأحداث الخطيرة الطارئة.

ومهما يكن من أمر فقد مالت نفس البحار الحكيم إلى بيلي بطريقته المتقشفة الخاصة، ولم يكن مرد ذلك إلى اهتمام فلسفي بعينه بتلك الشخصية فحسب بل كان هناك سبب آخر، إذ على حين كان شذوذ هذا الرجل العجوز الذي يبلغ أحيانًا حد التوحش يصد عنه صغار البحارة كان بيلي لا يصرفه هذا الشذوذ بل كان في احترامه للرجل وتقديره له كبحار بطل يحاول التقرب منه فكان لا يمر ببطل أجاممنون العجوز دون أن يحييه في احترام ملحوظ قلما يضيع أثره عند كبار السن مهما تكن جفوتهم في بعض الأحيان ومهما يكن مكانهم في الحياة. لقد كان في ذلك الرجل العجوز جانب من المرح الجاد أو نحو ذلك، وسواء أكان مرد ذلك إلى

نزوة من التعريض الأبوي الرقيق بشباب بيلي وتكوينه الرياضي أم لسبب آخر أكثر خفاء فإن البحار العجوز كان حين يخاطب بيلي منذ أول مرة كان دائمًا يناديه «بيبي بد» أي «الطفل بد»، بدلًا من بيلي بد، وبذلك أصبح هذا الحكيم هو مخترع هذا الاسم الجديد الذي بات ينادي به حارس السارية على ظهر السفينة.

ولنعد إلى سياق القصة لنقول إن الفتى حين أحس بهذه الورطة العجيبة ذهب يطلب الرجل العجوز لينشد عنده النصيحة فوجده عاطلًا من العمل في إحدى النوبات المسائية وقد جلس فوق صندوق رصاص في سطح المدافع العلوي منطويًا على نفسه يجتر أفكاره، وبين الفينة والفينة يمد بصره في نظرة ساخرة يستطلع أحوال المتنزهين فوق السطح، وتقدم منه بيلي وقص عليه ما صادفه مبديًا دهشته من حدوثه وقد أصغى إليه البحار الحكيم باهتمام زائد وكان يتتبع رواية حارس السارية بحركات في وجهه تهتز معها غضونه وتلمع عيونه الصغيرة المتطلعة لمعانًا محيرًا. ولما انتهى الفتى البحار من قصته سأل الحكيم، والآن خبرني ماذا ترى في هذا الأمر؟

فأزاح الرجل العجوز قلنسوته عن جبهته وأخذ يحك في تأمل الندبة الطويلة عند مفترق شعره، ثم قال في كلمات مقتضبة:

اسمع يا بيبي بد، إن جيمي لجز (ويعني بذلك مدرب السلاح) يريد أن يوقع بك لأنه حانق عليك. وصاح بيلي في دهشة وقد اتسعت حدقتاه: «جيمي لجز» حانق عليّ! وفيم حنقه؟ ولم! إنه يدعوني كما يقولون لي بالفتى الطيب البشوش!! وصرّ الرجل الأشيب بنابيه: أيدعوك كذلك؛

اسمع يا فتى، إن «جيمي لجز» له كلام معسول.

– إنه ليس كذلك دائمًا ولكنه معي معسول القول دائمًا، فما مررت به قط إلا لاقاني بالكلمة الحلوة.

– وهذا هو سبب حنقه عليك ورغبته في الإيقاع بك أيها الطفل الصغير.

والحق أن هذا التكرار من جانب الحكيم العجوز والطريقة التي ألقى بها قوله لم تكن بحيث يفهمها حدث مستجد، ومن ثم اضطرب لها بيلي وضاقت نفسه كما ضاقت باللغز المحير الذي جاء ينشد له تفسيرًا لدى الحكيم؛ لقد جاء ينشد من فم هذا الحكيم نبوءة قد تكون أقل تعكيرًا لصفوه، ولكن خارون البحر العجوز– وقد ظن أنه ربما أعطى الفتى «أخيل» ما يكفيه من المعلومات في هذه الحادثة بالذات– أقفل فمه وضم تجاعيد وجهه وأغرق في صمت ولم يزد شيئًا على ما قال.

والحق أن السنوات الطويلة والخبرات التي تمر ببعض الناس من ذوي الألمحية وتخضع حياتهم الطويلة لإرادة رؤسائهم، كل أولئك قد جعل السخرية المريرة الحذرة طابع شخصية هذا البحار الحكيم.

وفي اليوم التالي لهذا الحوار بين الفتى والحكيم وقعت لبيلي حادثة، أكدت له شكوكه في عدم صحة ما ذهب إليه الحكيم في تلخيص المسألة التي عرضها عليه. كان الوقت ظهرًا والسفينة تندفع في طريقها مع الريح، وكان بيلي يجلس في السطح الأسفل يتناول غداءه وقد انشغل بحديث رياضي مع بعض زملائه فأغفل طبق الحساء، وفي حركة مفاجئة

انسكب الحساء على أرضية السطح النظيفة اللامعة، وصادف أثناء ذلك مرور كلاجارت مدرب السلاح وبيده هراوته الرسمية بجانب البطاريات التي يقع المطعم في أحد خلجانها، وقد جرى السائل الدهني حتى قطع عليه طريقه، فتخطاه واستمر في سيره دون تعليق حيث إن المسألة في ظل الظروف القائمة لم تكن لتستحق الملاحظة، ولكنه حين لاحظ أثناء عبوره شخصية الذي انسكب إناؤه تغيرت ملامح وجهه وتوقف عن المسير وكان على وشك أن يطلق لسانه ببعض عبارات متعجلة يوجهها للبحار ولكنه كبح جماح نفسه واكتفى بالإشارة إلى الحساء الجاري ثم في مهارة دق ظهره بهراوته وهو يقول في صوت خافت معسول هو من خصائصه في بعض الأحيان: «لقد فعلتها برشاقة يا فتاي، والرشيق لا يأتي إلا بالرشيق». قال هذه العبارة ثم مضى في طريقه ولم يلحظ بيلي الابتسامة المصطنعة ولا حركات وجهه التي صاحبت كلمات كلاجارت الغامضة، لأنه لم يكن بحيث يشهدها. ومهما يكن من شيء فقد انفرجت لهذه الابتسامة في مرارة زوايا فمه الجميل، وقد أخذ الجميع ملاحظته على أنها دعابة، ومن ثم ولأنها جاءت من رئيس كان لزامًا عليهم أن يضحكوا في مرح مصطنع وقد تبعهم في ذلك بيلي الذي سرته الإشارة، إذ ظن أنه المعنيّ بقوله البحار الرشيق، ومن ثم انضم إلى زملائه في سرور وهو يصيح مخاطبًا إياهم:

– «أيكم الذي قال لي إن جيمس لجز حانق عليّ ويريد الإيقاع بي؟...».

وسأله البحار دونالد في شيء من الدهشة:

- ومن الذي روى لك ذلك يا جميل؟

وعندئذ ظهر على حارس السارية العليا شيء من الارتباك وقد تذكر أن شخصًا واحدًا بعينه هو الذي أوحى إليه بما كان عنده مجرد فكرة غامضة مفادها أن مدرب السلاح كان بطريقة ما يضمر له العداء، إنه سناج السفينة!

وفي الوقت نفسه استأنف مدرب السلاح مسيره ولا بد أنه قد غير ولو مؤقتًا مسحة الابتسامة المريرة المغتصبة التي كانت تعلو وجهه، وترك نفسه لسجيتها فبدا على سحنته انقلاب وتفاقم شوها وجهه وأثارا الفزع والقلق في نفس غلام صغير من البحارة وهو حامل الطبلة صادف قدومه من الجانب الآخر من السفينة وهو في قمة الصفاء يعبث في مرح دون مبالاة لشيء فاصطدم صدمة خفيفة بكلاجارت. على أن المعاملة التي عامله بها كلاجارت قد زادت الطين بلة، فقد أمسك كلاجارت هراوته في اندفاع وكال له ضربة شديدة وهو يصيح في غضب وعنف: «انظر أمامك قبل أن تضع قدمك».

U U U

ترى ماذا دهى مدرب السلاح حتى تصرف هذا التصرف؟ ليكن دهاه ما دهاه، ولكن كيف يمكن أن يكون لهذا التصرف علاقة مباشرة ببيلي بد الذي لم يحدث من قبل حادثة الحساء المسكوب أن احتك به على أية

صورة ما رسمية أو غير رسمية، ولا اتصل به اتصالًا شخصيًّا في أمر مهما يكن؟! بل كيف يمكن أن ترد هذه المتاعب إلى شخص هو أشد الناس عزوفًا عن الشر وأقلهم ميلًا لإحداث المتاعب للناس؟ كيف يمكن أن تنسب هذه المتاعب لشخص مكانه في السفينة كرسول السلام في السفينة التجارية، شخص هو على حد تعبير كلاجارت نفسه فتى طيب النفس بشوش الوجه؟ أجل لماذا يريد جيمي لجز أن يوقع بهذا البحار الوسيم إذا استعرنا تعبير البحار الحكيم؟ أما أنه كان يريد الإيقاع به فذلك أمر لا مرية فيه كما ستكشف حوادث هذه القصة للمتتبع لها، لقد كان في قلبه يريد الإيقاع به سرًّا ولم يكن هذا بلا سبب.

فإذا حاولنا تلمس هذا السبب وأرجعناه إلى شيء يمس مساسًا متزايدًا مهنة كلاجارت الخاصة مما له ارتباط ببيلي- وإن يكن بيلي يجهله كل الجهل- حادث ذي طبيعة رومانتيكية يتضمن في تقديره أن معرفة كلاجارت ببيلي ترجع إلى فترة سابقة على رؤيته على ظهر هذه السفينة، لما وجدنا صعوبة في مثل هذا التصور ولأجدى نوعًا ما في التعليل للغموض الذي يشوب هذه القضية تعليلًا لا يخلو من طرافة، ولكن تبقى بعد ذلك الحقيقة الثابتة وهي أن شيئًا من هذه التصورات لا أصل له، وأنه لا بد من سبب يرد إليه هذا التصرف، وقد يكون هذا السبب الذي لا مفر لنا من افتراضه باعتباره أقرب الفروض قبولًا هو في واقعه مشحون بالغموض الذي هو العنصر الأساسي في رومانسية رادتكليف، ومن هذا النوع الذي استطاعت عبقرية مؤلف «ألغاز أودلفو» أن تصوره، وإلا فأي شيء يمكن أن يصور بالغموض ويوصف به أكثر من هذه الكراهية التي

تنبت لفورها وتتعمق جذورها في بعض الأحياء من ذوي الشذوذ لمجرد الرؤية العابرة لبعض الأحياء الآخرين مهما خلت نفوس هؤلاء الآخرين من الشر وسلمت طبائعهم من الضر. بل قد يكون مبعث هذه الكراهية عند هؤلاء الشواذ هو هذه السلامة من كل شر، والخلو من كل أذى.

ومهما يكن من أمر فلا مشاحة أنه لا يجتمع في مكان ما خليط من الشخصيات غير المتجانسة المثيرة للكراهية جنبًا إلى جنب مثل ما يجتمع فوق سفينة حربية ضخمة مزودة بكامل قوتها من الرجال تمخر عباب البحر؛ فعلى ظهر هذه السفينة يلتقي كل رجل فيها على اختلاف الرتب كل يوم تقريبًا بكل رجل آخر، ولا سبيل في مثل هذه السفينة إلى أن يتفادى أي رجل فيها مجرد رؤية شيء مخيف إلا إذا قذف به من فوق ظهر السفينة في بطن حوت كما قذف يونس نفسه، أو إلا إذا ألقى هو بنفسه في اليم من فوق ظهر السفينة. ولك أن تتصور بعد هذا وقع مثل هذا الخليط في نفس مخلوق بشري غريب الأطوار هو في ذاته وصفاته أبعد ما يكون عن صفات قديس.

وعلى أي فمثل هذه التعليمات والإشارات لا تكاد تغني الرجل العادي السوي في فهم شخصية كلاجارت فهمًا صحيحًا، إذ لا بد لكي تنتقل من الرجل السوي إليه أن تعبر الفراغ الرهيب الشاسع الذي يفصل بين الطبيعتين، وخير وسيلة إلى ذلك هي الطريقة غير المباشرة.

أذكر منذ وقت طويل مضى أن واحدًا من العلماء الأمناء الأكبر مني سنًّا قال لي ذات يوم في معرض الحديث عن رجل قل أن تجود الدنيا بمثله اليوم؛ رجل محترم لم تشبه شائبة ولم يوجه إليه أي نقد على رؤوس

الأشهاد قط وإن يكن في صفوف القلة يدور حوله همس: «إن فلانًا هذا صلب المكسر لا تلين قناته لغمزات النساء...» وأنت تعلم يا صاح أنني لست من أتباع دين منظم بعينه ولا من المستمسكين بنظام فلسفي بذاته ولا أتعصب لأي رأي. لكل هذا أستطيع أن أقول لك إنك لو حاولت أن تدخل في باطن فلان هذا لتستشف ما وراءه فإنك تستطيع أن تنفذ إلى شغاف قلبه وتخرج منه دون أن تجد مفتاحًا لشخصيته ينبع من أي مصدر اللهم إلا ما هو معروف ومشهور وهو الخبرة بأحوال الدنيا، وتلك مزية ليست في الإمكان بالنسبة إليّ على الأقل.

قلت: ولم ذلك؟ إن فلانًا هذا مهما يكن حالة فردية تستدعي دراسة البعض فهو قبل كل شيء إنسان، والخبرة بأحوال الدنيا تضم بلا شك الخبرة بأحوال النفس البشرية في معظم أنواعها.

هذا صحيح ولكنها خبرة سطحية بطبيعة النفس البشرية لا تخدم إلا أغراضًا عادية، ولكن إذا أردنا التعمق والغوص في طبيعة النفس البشرية فأشك في أن الخبرة بأحوال الدنيا والخبرة بالنفس البشرية أمران متلازمان، بل يخيل إليَّ أنهما فرعان متميزان كل عن الآخر من فروع المعرفة وأنهما قد يوجدان جنبًا إلى جنب في قلب واحد، إلا أن أحدهما في وجوده قد يشترك مع الآخر في قليل أو لا يشترك معه ألبتة، ومع ذلك فالرجل العادي الخبير بشئون الدنيا يثلم احتكاكه المتواصل بها الحس الروحي الباطن الدقيق والبصيرة النفاذة اللذين لا غنى عنهما لإدراك الجوانب الأساسية في بعض الشخصيات المعينة الشاذة سواء أكان شذوذها خيرًا أم شريرًا. ولقد شهدت بنفسي في حادثة مهمة فتاة تطوي تحت جناحها

محاميًا كهلًا وتجعله طوع بنانها ولم يكن هذا الخضوع للفتاة عن ضعف الشيخوخة للحب أو عن هوى عارم، فشيء من هذا لم يكن له أي وجود، ولكن الأمر أن خبرته بالقانون كانت أكثر من خبرته بقلب هذه الفتاة، وقد حاول «كوك» و«بلاك ستون» عبثًا أن يلقيا مزيدًا من الضوء ليكشفا عن الشخصيات الروحية الغامضة كأنبياء بني إسرائيل.

وإذا سألنا عمن يكونان عرفنا سر فشلهما؛ فقد كانا ناسكين منعزلين عن الناس وعن الدنيا.

وفي ذلك الوقت لم يكن لي من التجربة ما يؤهلني لإدراك مغزى هذه العبارات ولا ما ترمي إليه، وقد أكون اليوم في موقف يمكنني من فهمها. والحق أنه لو كان معجم كلمات الكتاب المقدس معروفًا ومتداولًا عند الناس لاستطاع الإنسان دون صعوبة ما أن يحدد ويسمي بعض الناس ذوي الشذوذ، أما والحال أنه غير معروف ولا متداول فلا بد للإنسان في ذلك أن يرجع إلى بعض المختصين من غير المتأثرين بالصبغة الدينية.

وقد جاء في ثبت التعريفات التي تضمنتها الترجمة الصحيحة المعتمدة لأعمال أفلاطون الجدول الآتي منسوبًا إلى أفلاطون نفسه:

الانحراف الطبيعي: انحراف بالفطرة، وهو تعريف إن اشتمت منه رائحة مذهب كلفن إلا أنه لا يتضمن عقيدة كلفن الثابتة بالنسبة لمجموع البشرية، ومن ثم فالظاهر من مغزى هذا التعريف أنه لا ينطبق إلا على الحالات الفردية، فقليل هم الذين يمكن أن يكونوا أمثلة لهذا الانحراف ممن تضمهم السجون والمشانق، وعلى أية حال فلو أخذت الموضوع من ناحيته الأخرى- وهي حالات الشذوذ في الطبقات العليا تلك التي

تخلو من عناصر الشر السوقية الدخيلة والتي تتميز دائمًا بالثقافة التي تسيطر على عقولهم- لكان لزامًا علينا أن نتجه وجهة أخرى. إن المدينة وعلى الأخص المدينة المتزمتة تهيئ الظروف الملائمة لمثل هذا الشذوذ؛ فهي تغلف نفسها بمظاهر الوقار والاحترام، ولكن لها في الوقت نفسه فضائل سلبية تؤدي وظيفة العوامل المساعدة الخفية التي تعين على هذا الشذوذ؛ فهي مثلًا لا تسمح للنبيذ بالتداول تحت حمايتها ولكنها مع ذلك لا تبالغ فتدعي لنفسها السلامة من الرذائل والخطايا الصغيرة وإن كانت كبرياؤها الشاذة تنفي عن هذه الرذائل والخطايا كل ما يمت بصلة للرغبة في الكسب غير المشروع أو الجشع لجمع المال. وعلى الجملة فالانحراف المعني هنا هو التظاهر بالعزوف عن كل ما هو دنيء أو مبتذل، وهو انحراف خطير وإن خلا من العنف في ظاهره، وهو وإن لم يتملق البشرية لا يتحدث عنها بسوء.

على أن الظاهرة التي تكشف عن هذه الطبائع الشاذة غاية الشذوذ في الطبقات البارزة هي أن الرجل منهم- وإن بدا سويّ الخلق هادئ المزاج متزنًا في أعماله وأقواله مما يوحي بعقل يخضع في تصرفاته خضوعًا عجيبًا لحكم المنطق- إلا أن في نفسه تستعر ثورة جامحة للتحلل تحللًا كاملًا من هذا المنطق. والواضح أنه لا يعنيه في كثير ولا قليل هذا المنطق اللهم إلا لاستخدامه سلاحًا ذا حدين لتحقيق مآربه غير المنطقية. أي إنه يستغل اتزانه وحكمته ومنطقه لتحقيق غرض خفي في نفسه، غرض هو من الدناءة والخبث وإهدار كل معنى كريم بحيث يكاد لا يفترق عن الجنون ذاته. هؤلاء الناس مجانين بكل معنى الكلمة، وجنونهم من أشد أنواع

الجنون خطورة لأنه جنون غير مستمر، وإنما تثيره المناسبات ويحركه شيء بعينه، فهو جنون خفي يمكن أن يقال عنه إنه جنون منطوٍ في أعماق النفس؛ فهو حين يكون في فاعليته لا يستطيع الرجل العادي أن يفرق بينه وبين الجنون الحقيقي، وهو للسبب الذي سبق ذكره- مهما تكن دوافعه إذ الدوافع دائمًا خفية لا يكاد يفصح عنها- هو في طريقته وسلوكه دائمًا منطقي لا غبار عليه.

من هذا القبيل كان كلاجارت، وكان مرد جنونه إلى طبيعة شريرة متأصلة في نفس لم تكن وليدة تربية خبيثة، ولا قراءة كتب منحرفة، ولا حياة بوهيمية، بل طبيعة ولدت معه ونبعت من نفسه، أو في كلمة واحدة «انحراف بالفطرة».

U U U

حادث المحامين والخبراء والقساوسة

وبهذه المناسبة هل لنا أن نتساءل عما إذا كانت الظواهر السلوكية التي لا يعترف بها أو على الأقل يخفيها البعض ولا يحبون الاعتراف بها في بعض قضايا الجنايات، هي التي تحير المحاكم وتضطر المحلفين في بعض الأوقات إلى احتمال سماع المرافعات المستفيضة والحجج المطولة التي يدلي بها المحامون تسويغًا لأجورهم فحسب، بل وإلى سماع المنازعات المربكة بين الخبراء من رجال الطب الذين يتضاربون في تقاريرهم من أجل أجورهم أيضًا؟ وهل لنا أن نتساءل أيضًا: لماذا يترك الأمر لهم وحدهم؟ ولماذا لا يستدعى كذلك الخبراء من رجال الكنيسة بإعلامٍ للحضور أمام المحكمة؟ فمهنتهم تهيئ لهم فرصة الاتصال المباشر الخاص بعدد كبير جدًا من الناس وفي ساعات تنتفي فيها الحيطة والحذر أحيانًا وتدور فيها أحاديث خاصة أكثر خصوصية من تلك التي تدور بين الطبيب والمريض، وهذه الميزات تؤهلهم لمعرفة الكثير من العقد والمشاكل التي تنطوي عليها مشكلة تحديد المسئولية الأدبية؛ فهم بوصفهم هذا يستطيعون أن يبينوا في قضية معينة ما إذا كان سبب الجريمة

نابعًا من لوثة في العقل أم اختلال في التوازن العصبي. ولا عبرة بما يقال عن اختلافهم في الرأي فهم يستطيعون أن يحسموا هذه الخلافات عند المناقشة أمام المحكمة. على أن هذه الخلافات مهما تكن لن تصل بحال إلى التضارب المباشر بين تقارير الخبراء من الأطباء المأجورين الذين يتناقضون في تقاريرهم ويتبادلون هذه المناقضات.

وقد يقال إن هذه كلمات خبيثة سيئ مرماها- ولكن لماذا تحمل على هذا المعنى؟- ألأنها مما قد يشتم دخوله إلى حد ما تحت عبارة الكتاب المقدس «أسرار الإثم؟» إن صح دخولها تحت هذه العبارة فإن ما قصدناه أبعد ما يكون عن المساس بها؛ فإن مثل هذا المساس لا يغني شيئًا في ترويج هذه الصفحات لدى الكثيرين من القراء اليوم.

ولقد استدعى كتابة هذا الحادث أن موضوع هذه القصة التي نرويها هنا يستهدف الكشف عن خبيئة نفس مدرب السلاح، وقد يقتضي الأمر أن نضيف إشارة أو إشارتين فيما يتصل بحادثة سكب الحساء في العنبر ثم نستأنف سياق القصة تاركين لهذا السياق التدليل على صحة ما ذهبنا إليه.

U U U

الحقد الأصفر والحسد والبأس

لقد ذكرنا من قبل أن صورة كلاجارت لم يكن يشوبها نقص ما، وأن وجهه- فيما عدا ذقنه- كان متناسبًا. والحق أن كلاجارت لم يكن غافلًا عن محاسنه هذه، ومن ثم لم يكن بادي الأناقة فحسب بل كان موفور العناية بملبسه وهندامه،بيد أن قوام «بيلي بد» كان فارعًا ينم عن البطولة على أن وجهه وإن خلا من مسحة الذبول التي هي طابع المثقفين من أمثال كلاجارت إلا أنه كان مضيئًا يشع ضياؤه من دخيلة نفسه، كما يشع وجه كلاجارت ولكن مع اختلاف في مصدر هذا الضياء عندهما: لقد كان النور الذي يغمر قلب بيلي هو الذي كان يشع الضياء على خديه الورديين.

فإذا أخذنا في اعتبارنا هذا التناقض الملحوظ بين شخصية هذين الاثنين فقد يكون أكثر من محتمل أن نقول إن مدرب السلاح حين طبق على البحار الفتى في حادثة الحساء المسكوب التي أشرنا إليها من قبل المثل المشهور: «الرشيق لا يأتي إلا بالرشيق»؛ قد أفلت لسانه بتلميح

ساخر يدل على ما في نفسه وإن لم يدرك مغزاه البحارة الفتيان الذين سمعوه؛ تلميح يكشف عما أثاره ضد بيلي من أول الأمر ألا وهو رشاقته وجمال بنيانه الممتاز.

إن الحسد والكراهية انفعالان لا ينسجمان منطقيًا، ومع ذلك فهما في الواقع قد ينبعثان معًا ويتلازمان كما تلازم التوأمان السياسيان شانج وانج في المولد. ترى هل الحسد بارد مخيف منفر؟ أجل؛ فعلى الرغم من أن كثيرين من المتهمين المقدمين للمحاكمة يؤثرون أملًا في تخفيف العقوبة أن يقروا بذنبهم في ارتكاب أفظع الجرائم إلا أنه ما من أحد اعترف على نفسه جادًّا بأنه حسود. إن الحسد فيه ما يصم صاحبه بخزي وعار أشد ما تصمه به جرائم الخيانة، وهو أمر يحس به الناس جميعًا ويجمعون عليه، وكل الناس ينكرونه ويتملصون منه، بل إن خيرة الناس أميل إلى عدم تصديق وقوعه من شخص ذكي حتى ولو كانت التهمة الموجهة إليه حاسمة قاطعة. ولما كان الحسد مستقرًا في النفس لا في العقل فأي حظ من الثقافة مهما بلغ يمكن أن يعصم النفس منه ولا أن يضمن عدم وقوعه، ومهما يكن من شيء فالحسد عند كلاجارت لم يكن انفعالًا من هذا النوع السوقي بل ولم يكن حسده الموجه إلى بيلي بد يمت بسبب إلى هذا الشعاع من الغيرة التي لها ما يسوغها والتي كان يغبر لها وجه شاذول الملك وهو يدير في كدر فكره في أمر داود الفتى الوسيم، بل كان حسد كلاجارت أشد من ذلك وأعمق فهو إذ ينفس على الفتى في حسد وكراهية جمال مظهره وكمال صحته واستمتاعه الصريح البريء بحياة الشباب، فلأن هذه الظواهر كلها تسير جنبًا إلى جنب مع طبيعته شعر بها كلاجارت

بحاسته الخامسة. إنها طبيعة على بساطتها لم تضمر قط عداوة لمخلوق ولا جربت لدغات الحقد التي ينفثها ثعبان الكراهية. كان كلاجارت يرى أن الروح التي تسكن في نفس بيلي وتطل من عينيه الزرقاوين كأنما تطل من نافذتين، هذه الروح التي لا تستطيع أن تعبر عن نفسها هي التي صورته على أتم صورة ورسمت هذا الخال في خده الوردي وصقلت أطرافه وأضفت عليها مرونة وتراقصت في خصلات شعره الذهبية وجعلت منه البحار الوسيم المنقطع النظير. وكان مدرب السلاح باستثناء رجل واحد هو الشخص الوحيد على ظهر السفينة المهيأ عقليًا لتقدير الظاهرة الأدبية التي يمثلها بيلي بد تقديرًا كافيًا، هذا التهيؤ على ما يصحبه من بصيرة نفاذة قد زاد انفعالاته التي كانت تتخذ أشكالًا خفية مختلفة في دخيلة نفسه؛ فكانت أحيانًا تتشكل على صورة الازدراء المرير والاستهانة بالبراءة، الاستهانة بأن يكون الإنسان لا شيء اللهم إلا البراءة الخالصة، ولكنه مع ذلك كان يرى حين يعرض هذا على المقاييس الجمالية ما لهذه البراعة من رونق أخاذ وما وراءها من مزاج هادئ صفو وروح جريئة، وبوده لو استطاع أن يقاسمه إياها ولكنها أمنية اليائس.

وطبيعة كطبيعة كلاجارت بلا قوة تقضي على عنصر الشر المتأصل فيها وإن استطاعت أن تخفيه ونجحت في هذا الإخفاء، طبيعة تدرك معنى الخير ولكنها عاجزة عن أن تكون طبيعة مشحونة بنشاط فوق طاقتها، شأنها في ذلك شأن كل الطبائع المماثلة لها. مثل هذه الطبيعة ماذا أمامها من طريق تسلكه إلا أن تلتف حول نفسها كالعقرب التي لا يسأل عنها إلا خالقها وحده وتمضي في طريقها إلى نهايته لتؤدي دورها المكتوب

عليها.

الانفعال، والانفعال في أعمق صوره، لا يتطلب مسرحًا فخمًا ليؤدي دوره عليه، إنه يؤدي دوره في الحضيض بين اللقطاء وفي صفوف المتسولين وجامعي القمامة، والظروف التي تستثير هذا الانفعال مهما تكن تافهة أو حقيرة لا يمكن أن تتخذ مقياسًا لقوته. ومسرح الانفعال في حادثتنا هذه هو عنبر المدافع اللامعة أرضيته، وأحد المثيرات الخارجية لهذا الانفعال هو سكب أحد بحارة السفينة الحربية لحسائه فوق الأرضية الحديثة التلميع. ولا بد أن مدرب السلاح حين لاحظ المكان الذي انساب منه هذا السائل الدهني ومر تحت قدميه قد اتجه عامدًا إلى حد كبير إلى أخذ الحادثة، لا على أنها مجرد حدث عابر غير مقصود كما يؤكد واقع الأمر، بل على أنها سلوك خبيث مقصود للتنفيس عن إحساس مقصود وقتي راود بيلي حين رآه؛ وكان كلاجارت في اتجاهه هذا يعمل مستجيبًا لما يكنه هو من كراهية للفتى... ومهما يكن من شيء فلا بد أنه رأى في هذا العمل ظاهرة تافهة لا خطر منها إطلاقًا، مثلها كمثل ضربة عشواء تصدر عن عجل صغير لا جدوى منها ولا أذى، لكن لو أن هذا العجل الصغير كان حصانًا محدو الحوافر لما كانت ضربته هذه لا ضرر من ورائها ولا أذى.

على هذا النحو لا بد أن تفكيره استطرد به فامتلأ صدره بالحفيظة وألهب الشعور بالاحتقار الغل المرير الذي ينطوي عليه قلبه فزاده غليانًا. وأكدت له هذه الحادثة الأقاويل والشائعات التي كان يملأ بها أذنيه «الأجش» أحد معاونيه وأشدهم دهاء ومكرًا؛ وهو رجل أشيب نحيف

كان البحارة يطلقون عليه اسم «الأجش» نسبة إلى صوته «الأجش» وإلى وجهه المدبب الذي يدسه في أركان العنابر السفلى المظلمة متطلعًا إلى المتلصصين والانتهازيين مما كان يثير تندرهم به وسخريتهم اللاذعة منه إذا كان يذكرهم دائمًا بالفأر في مخزن الأطعمة.

ونظرًا لاستخدام مدرب السلاح للأجش كأداة خفية لنصب الشراك لمضايقة البحار الفتى حارس السارية العليا- إذ كانت كل المتاعب التي حلت به حتى الآن مما أشرنا إليه في سياق القصة من وحي مدرب السلاح- أدرك هذا «الأومباشي» بفطرته السليمة أن مدرب السلاح لا يطيق هذا البحار ولا يضمر له شائبة من حب، لذلك جعل همه كتابع مخلص أن يثير سخط رئيسه ويغذي حفيظته على البحار الشاب بقلب معاني العبارات المرحة البريئة التي يقولها البحار الصافي القلب، ويضيف على لسانه أحيانًا عبارات ساخرة وقحة يدعي أنه استرق السمع إليه وهو يرددها.

ولم يكن مدرب السلاح ليشك في صحة هذه الأنباء التي تنقل إليه؛ وعلى الأخص العبارات الساخرة والنعوت الوقحة؛ إذ كان يدرك حق الإدراك مبلغ كراهية البحارة في سرهم لمدرب السلاح على الأقل في تلك الأيام ولا سيما إذا كان من النوع الحريص على أداء واجبه، وكيف يوجهون إليه في اجتماعاتهم سرًّا النقد اللاذع والسخرية التي يتفتق عنها خيالهم. والاسم المستعار الذي كان مشهورًا به لديهم (جيمي ليجز) وإن قصدوا به الفكاهة والمرح، إلا أنه كان ينم عن الكراهية له وعدم الاحترام. على أن كلاجارت لم يكن في حاجة إلى واشٍ يغذي انفعالاته؛ لأنه كان يعلم مبلغ الكراهية التي يكنها البحارة لرجال العسس ولما كان المعتاد

في انحراف أفراد الطبقات الممتازة التميز بحرص وحذر غير عاديين فهو يميل دائمًا إلى التخفي في كل شيء. على أنه في حالة وقوع الضرر- حتى ولو كان مشكوكًا فيه- فإن هذه السرية تتجه عامدة إلى إخراجه من دائرة الوهم أو التهوين من أمره، وبلا تردد تنزع النفس إلى الانتقام المباشر، يستوي عندها في ذلك ما إذا كان الأمر مبنيًا على مجرد التكهن أو مبنيًا على الحقائق الثابتة، ويكون الانتقام في هذه الحالات فظيعًا لا تتناسب فظاعته مع الذنب المزعوم!! ومتى كان الانتقام عند أي إنسان في حدة اندفاعه شيئًا آخر غير الربا المضاعف.

أما والحال هكذا فكيف يكون الأمر في ضمير كلاجارت؟ إن الضمائر وإن اختلفت كاختلاف الجباه بين إنسان وآخر فإن لكل مخلوق عاقل ضميرًا. ولا يخرج من هذا حتى الشياطين التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس، التي تؤمن وتقشعر. على أن ضمير كلاجارت لم يكن إلا المسوغ لإرادته، ومن ثم كان يهول التافه. ومن المحتمل أنه كان يدلل على أن الدافع المنسوب لبيلي والذي حفزه على سكب الحساء حين همّ به، مضافًا إليه الأقوال المزعوم صدورها منه، كان يدلل على أن كل هذه الأشياء في ذاتها بلا زيادة؛ كافية لاتهامه اتهامًا قويًّا، بل لعله كان يسوغ العداء ويخلع عليه ثوب الجزاء الحق. فالفريسي[1] هنا ما هو إلا خائن كجاي فوكس[2] يتسلل في الحنايا الخفية في

(١) الفريسي: المتشدد في الحق في الظاهر نفاقًا.

(٢) جاي فوكس: الذي اشترك في مؤامرة نسف مجلس العموم البريطاني ويعتبر رمزًا للخيانة.

رجال من أمثال كلاجارت. وهؤلاء الناس لا يكادون يتصورون أن هناك شرًّا لا يقابل بمثله. ومن المحتمل أن الاضطهادات العدائية التي كان يوقعها مدرب السلاح ببيلي قد بدأت تثقل عليه ولكنها لم تتطور إلى ظاهرة سلوكية فيه تستطيع العداوة أن تستغلها رسميًّا ضده أو حتى أن تحورها إلى تسويغ مقبول للنفس، لذلك كان الحدث الذي وقع في العنبر على تفاهته موضع الترحيب لدى هذا الضمير المنحرف الذي هو المشير الخاص الأمين لكلاجارت هذا بالنسبة لهذه الحادثة، أما ما بقي فلا شك أنه وضعه في وضع واجه فيه كثيرًا من التجارب الجديدة.

ولم تمض أيام طويلة منذ الحادث الأخير الذي رويناه حتى وقع لبيلي بد أمر ضاق به وأقلقه أكثر من أي أمر آخر وقع له من قبل.

كان الليل دافئًا على غير العادة في مثل خط العرض الذي كانت تسير فيه السفينة، وكان حارس سارية المقدمة العليا الذي كانت نوبته في ذلك الوقت في أسفل السارية مستغرقًا في إغفاءة فوق الظهر الأعلى للمركب حيث صعد من سريره الساخن المعلق إلى جانب مئات أخرى من الأسرة متلاصقة متلاحمة فوق الظهر الأسفل للمركب المخصص للمدافع، وهي لتلاصقها قلما تهتز أو تتأرجح، وكان في إغفاءته يرقد كأنما ينام في ظل تل، متمددًا على الأرض، مدرئًا بدعامات الشراع- وهي مجموعة متراصة من كتل خشبية توضع عادة وسط السفينة بين سارية المقدمة والسارية الرئيسية للانتفاع بها عند الحاجة وفي وسطها يثوي أكبر قوارب السفينة «اللنش»- وكان ينام إلى جانبه ثلاثة آخرون من أهل العنبر السفلي، وكان مكانه منهم عند نهاية الدعامات القريبة من سارية المقدمة.

ولما كان موضعه في الحراسة في السارية العليا التي تقع فوق مثوى البحارة في السطح الأمامي للسفينة فقد خوله هذا الوضع طبقًا للعرف الجاري حرية التنقل في هذه الجيرة إلى حد ما.

وبعد قليل أقبل من أخرجه من سباته فانتبه نصف واع لما حوله، وكان هذا الذي أخرجه من نومه رجلًا مس كتفه بعد أن تأكد لنفسه قبل أن يمسها من استغراق الآخرين في النوم، فلما رفع حارس السارية العليا رأسه نفخ في أذنه في همس خفيض: «عجِّل. امرق إلى الممر الأمامي للسفينة يا بيلي فإن الريح محملة بالأنباء. صه ولا تنبس ببنت شفة وعجل، وسأوافيك هناك» ثم اختفى لتوه.

والحق أن بيلي كعديد غيره من ذوي السريرة الطيبة الأصيلة فيه تلك الأنواع من الضعف التي تلازم السريرة الطيبة الأصيلة ولا تنفك عنها، والتي منها التقاعس أو في الأغلب عدم القدرة على قول «لا» في وجه أي اقتراح مفاجئ يعرض عليه ولا يبدو في ظاهره أنه واضح البطلان، بيّن العداء أو سافر الشر. ولما كان بيلي من ذوي الدماء الحارة فإن تكوينه قد خلا من تلك البرودة التي تسلب في سكون كل اقتراح من فاعليته حين تواجهه بسلبية ولا تستجيب لدوافعه.

والواقع أن إدراك بيلي لكل ما يخرج عن حدود الأمانة وصدق الطبيعة كان بطيئًا كشعوره بالخوف، وفضلًا عن ذلك فإنه في الظروف الراهنة كانت غيبوبة النوم ما تزال مسيطرة على مداركه.

ومهما يكن من شيء فقد هب بيلي واقفًا بطريقة آلية ثم أخذ يسائل نفسه في تعجب ما يزال يخالطه النعاس عما عسى يكون هناك من أنباء

تحملها الريح، ومضى إلى المكان الذي حدد له وهو «رصيف» ضيق واحد من ستة خارج الهيكل العلوي للسفينة تحجبها حبال المراسي وعديد من الأرسان والقنب المشدودة من عيونها كأنها العمد التي تتناسب أبعادها في سفينة حربية ضخمة من سفن تلك الأيام مع ضخامة جسم السفينة. هذا «الرصيف» كان أشبه بشرفة خارجية يغطيها القار، بارزة فوق سطح البحر، وهي على هذه الصورة معزولة تمام العزلة عن السفينة لدرجة أن أحد البحارة في الأندوميتابل- وهو بحار من ذوي الميول الجادة المخالفين لمذهب الكنيسة السائد- كان يعتزل فيها ويتخذ منها في وضح النهار منبره الخاص.

وفي هذا الركن القصي المنعزل وافى الرجل الغريب بد إثر وصوله ولم تكن الليلة مقمرة، وكانت النجوم تظللها عتمة تحجب ضياءها، ومن ثم لم يستطع بد أن يميز وجه صاحبه في وضوح ولكنه استطاع من ملاحظته لأشياء في شكله ومظهره أن ينسبه محقًّا إلى حرس الدفة.

وفي همس المحتزر كدأبه في المرة الأولى وسوس في أذن بيلي قائلًا:

- صه يا بيلي وأصخ السمع.. لقد جندت إجباريًّا لهذه الخدمة. أليس كذلك؟

- أجل لقد أجبرت عليها وكذلك أنا.

ثم توقف قليلًا عن متابعة الهمس ليستبين أثر كلامه في نفس بيلي؛ بيد أن بيلي- ولما يدرك تمامًا مغزى كلامه ولا ما يصنع به- لم يحر

جوابًا، فتابع الرجل الغريب همسه قائلًا: لسنا وحدنا المجندين إجباريًّا هنا يا بيلي، بل نحن عصبة. ألا تستطيع أن تمد يد المساعدة، أن تشاركنا في إغارة؟ وسأل بيلي وهو يزيل أثر النعاس عنه ليكون في كامل يقظته: «ماذا تعني بهذا القول؟» وأجاب الهامس العَجِل وقد استحال صوته إلى الخشونة: «صه. صه. وأنصت يا بيلي وانظر إلى ما في يدي» ومد الرجل يده ممسكًا بأشياء صغيرة أخذت تلمع لمعانًا حقيقيًّا في ضوء الليل.. ثم استطرد يقول: هذه لك يا بيلي إذا أنت... وقطع بيلي عليه حديثه. وفي ثورة من السخط والحماسة لخلاص نفسه يقطعها إلى حد ما فأفأة تدل على عجزه الصوتي قال: «اللعنة.. اللعنة!! لست أدري ماذا تقصد ولا ما تهدف إليه؟ خير لك أن تعود إلى حيث تعمل» ودهش الزائر الغريب لهذه الإجابة وأصابه الاضطراب والحيرة فتسمر في مكانه لحظة، فاستثار هذا الجمود بيلي فهب على أطراف قدميه صائحًا: إذا لم تتحرك لفورك فسأقذف بك عبر الحاجز...! ولم تخل عبارته من العزم الأكيد فلم يكن ثمة مجال للخطأ في إدراك نتائجها من جانب المبعوث الغامض، ومن ثم هرول منسحبًا واختفى متجهًا صوب السارية الرئيسية مستترًا وراء الدعائم الخشبية.

وعلى الأثر رن صوت مزمجر من أحد بحارة عنابر النوم، أيقظته من هجعته على ظهر السفينة صيحة بيلي قائلًا:

– «إيه. ما الخبر؟»

فلما عاد بيلي إلى مكانه واستبان البحار هويته وتعرف عليه، خاطبه قائلًا:

- «مرحي أيها الجميل. أهذا أنت؟ لا بد أن شيئًا وقع لك حملك على الفأفأة..».

وأقبل عليه بيلي وقد تغلب على ما عرض له من انحباس اللسان قائلًا: أوه! لقد عثرت بأحد حراس الدفة في قسمنا هذا فأمرته أن ينسحب فورًا إلى مكانه من السفينة. وزمجر بحار آخر إلى جانبه متسائلًا في خشونة، وكان صاحب الصوت الأجش رجلًا مسنًّا غضوبًا بطبعه، وجهه وشعره يميلان إلى الحمرة الداكنة، وكان معروفًا لدى زملائه باسم الفلفل الأحمر ثم أردف يقول:

- «أمثال هؤلاء المتسللين يجب أن يزوجوا بابنة المدفعي..».

ويعني بهذا التعبير أنه يرغب في أن ينزل بهؤلاء المتسللين العقوبات التأديبية الشديدة من فوق المدفع.

ومهما يكن من شيء فإن معالجة بيلي للموضوع قد فسرت لهؤلاء المستفسرين تفسيرًا مرضيًا أسباب الحركة المختصرة التي وقعت. ولما كان رجال المقدمة في السفينة هم من بين جميع الأقسام أكثر البحارة في الأغلب تمرسًا بفنون البحر وخبرة بها وأشدهم استمساكًا وتعصبًا لآرائهم البحرية، فقد كانوا أشد البحارة غيرة في الثورة، على أي تحيف أو عدوان على أماكنهم، وعلى الأخص إذا جاء هذا العدوان من رجال المؤخرة الذين لا يكنون لهم أي احترام، ذلك لأنهم أساسًا جنود البر ولا يسمح لهم بالصعود إلى أعلى السفينة أبدًا إلا إذا احتاج الأمر إليهم لطيّ الشراع الرئيسي أو موازنته. ولك أن تقول إنهم بهذا الوصف ليسوا على أي وجه من الوجوه بقادرين ولا أكفاء للقيام باستخدام آلات التضفير

والحل أو عقد الحبال وسحبها من خلال الحلقات.

والحق أن هذا الحادث أقلق خاطر بيلي بد وأربكه بشدة؛ فقد كان بالنسبة إليه تجربة جديدة كلية، فقد كانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي يتصل فيها به مباشرة بطريقة خفية غير شريفة توحي بالتآمر... والواقع أنه قبل هذا اللقاء العدائي لم يكن يعرف شيئًا عن رجال المؤخرة؛ فهم متباعدو المقام يفصل بينهم بون شاسع، فرجال السارية العليا يعملون في المقدمة، وفي الطابق الأعلى، على حين يعمل الآخرون في المؤخرة، وعلى الظهر الأسفل للسفينة.

لم يكف بيلي عن التفكير في الحادث وتقليبه على وجوهه، وأخذت الأفكار تجول في نفسه: ترى ما يمكن أن يعني هذا الحديث؟ ترى هل هذه الاشياء البراقة التي عرضها على عينيه هذا الوسيط الفضولي جنيهات ذهبية حقيقة؟ وترى من أين حصل هذا الرجل على مثل هذه الجنيهات. على حين تندر حتى الأزرار الإضافية في البحر ولا توجد منها فضلة للاستعمال..؟ والحق أنه كلما قلب الأمر ازدادت حيرته ولم يجد مزيدًا يقال أو يفعل... وازداد كذلك قلقه وعدم ارتياحه. ولم يكن بيلي في إعراضه ممتعضًا مستهجنًا هذا الاقتراح- الذي وإن أساء فهم مقاصده إذ أحس بالغريزة أنه لا بد منطو على شر ما- إلا كالحصان الفتي الذي خرج لتوه من المرعى وانتقل إلى المدينة لتستنشق معاطسه بغتة ريحًا كريهة متصاعدة من بعض المصانع الكيماوية، فأخذ نفسه بالعطس المتكرر ليخلص معاطسه ورئتيه من هذه الرائحة، هذا التكيف العقلي قد أخمد في نفس بيلي كل رغبة في عقد محادثات أخرى مع الوسيط الذي حمل إليه

هذا العرض حتى ولو لمجرد الاستنارة عن أهدافه من وراء هذا الاتصال. على أنه مع هذا لم يخل من حب الاستطلاع الطبيعي في أن يتعرف هذا الطارق الليلي ليرى كيف يبدو في رائعة النهار.

وفي اليوم التالي أخذ يتلمسه أثناء نوبة حراسته الأولى بعد الظهر في أدنى السفينة لعل عينه أن تقع عليه بين المدخنين في الجزء الأمامي من سطح المدافع المخصص للذخيرة، وتصفح الوجوه فتعرف على صاحبه من ملامحه العامة وتركيبه الجسماني أكثر من وجهه المستدير المنمش أو من عينيه الجامدتين ذواتي اللون الأزرق الباهت اللتين تغطيهما رموش بيضاء تقريبًا.

ومع ذلك فلم يكن بيلي متأكدًا بصفة قاطعة من أن صاحب وفادة الأمس هو ذلك الفتى الذي يقاربه في السن الواقف على مبعدة يتحدث ويضحك من قلب خلي وقد اتكأ على أحد المدافع، ويبدو في كل مظاهره فتى طروبًا ممراحًا لا تمل العين من النظر إليه، فارغ الرأس، كثير الكلام ممتلئ الجسم في بدانة لا تتمشى مع كونه بحارًا فضلًا عن رجل من حراس المؤخرة، وعلى الجملة فهو آخر رجل في هذه الدنيا يمكن أن يدور بخلد أحد أن ينوء بحمله من الأفكار ولا سيما الأفكار المخيفة المرعبة التي لا بد أن تكون سمة كل متآمر في مشروع جدي أو في القليل أي شريك معاون فيه.

والواقع أن الرجل كان أسبق إلى الإحساس بمقدم بيلي؛ فقد لمحه بنظرة جانبية طويلة المدى تدل على اليقظة لكل ما يدور حوله وإن لم يدركها بيلي. ولما رأى أن بيلي يصوب النظر إليه أسرع يومئ إليه إيماءة

في غير كلفة تحمل معنى الترحيب الودي بصديق قديم دون أن يقطع حبل الحديث الذي كان متصلًا بينه وبين جماعة المدخنين. وبعد يومين من هذه الإيماءة صادف أن مر وهو في نزهته المسائية فوق سطح المدافع ببيلي فألقى إليه بتحية سريعة تحمل معنى الإخاء والود وقد كانت هذه التحية العابرة غير المتوقعة والمشكوك في أهدافها في ظل الظروف القائمة، سببًا في حرج بيلي وحيرته إلى حد لم يعرف معه كيف يستجيب لها، فتركها تمر غير عابئ بها كأن لم تكن.

كل هذه الأمور تركت بيلي أكثر حيرة من ذي قبل، فالتكهنات عديمة الجدوى التي انقاد لها، كانت في غرابتها لطبعه، مقلقة لنفسه إلى حد بعيد حمله على أن يبذل جهده ليقضي عليها ويخنقها في مهدها؛ فعقله لم يكن ليقبل إطلاقًا أن ما حدث على ما فيه من شك بالغ في تمشيه مع النزاهة والأمانة يمكن أن ينطوي على أمر يستدعيه واجبه كبحار أمين مقيم على الولاء للبحرية أن يسارع بإبلاغه إلى الجهات المسئولة، ومن ثم لم يجل بخاطره هذا الأمر أبدًا، ولو أن هذا الأمر قد اقترح عليه لكان من المحتمل جدًّا أن يحول بينه وبين تنفيذه مجرد تفكيره في أن هذا الإجراء قد يشتم منه رائحة الانحدار إلى درك الوشاية، وهو عمل يأباه ترفع المحدثين، ومن ثم طوى الأمر في نفسه ولم يبح به لأحد. غير أن صدره ذات مرة لم يحتمل الكتمان فنفس بعض الشيء عن مكنون جوانحه إلى الدانمركي العجوز، وقد يكون دافعه إلى هذا التنفيس التأثر بليل ساج منعش سكنت فيه السفينة وشملتها هدأة، وران الصمت الطويل بينه وبين صاحبه وهما جالسان فوق سطح السفينة وقد أسندا رأسيهما إلى حافتها. على أن بيلي

بدافع من تزمته الذي لا أساس له مما سبق أن أشرنا إليه كان متحرزًا فلم يفض لصاحبه إلا بجزء من القصة دون ذكر الأسماء؛ إذ حاشاه أن يصارح أحدًا مهما يكن بكل ما في دخيلة نفسه. وما إن سمع الدانمركي الحكيم رواية بيلي حتى بدا عليه أنه يعرف عن طريق التنبؤ أكثر مما قد سمع. وقعد شطحة في التأمل لم تطل تجمعت فيها تجاعيد وجهه وتركزت في نقطة واحدة محت لوقتها المسحة الساخرة التي كانت تبدو على وجهه في بعض الأحيان قال مخاطبًا بيلي:

«ألم أقل لك هذا يا بيلي بد؟».

فتساءل بيلي:

«وما هذا الذي قلته؟».

فأجاب الدانمركي الحكيم: «قل لي لماذا يكرهك ويضمر لك الحفيظة جيمي ليجز؟».

فأردف بيلي يقول في دهشة:

«وما علاقة جيمي ليجز بهذا البحار المخبول من حرس المؤخرة؟».

فصاح الحكيم:

«ويحك! أكان إذن من رجال المؤخرة؟ يا له من مخلب قط. مخلب قط!» وما إن صاح هذه الصيحة التي لا يدري أحد أكانت تشير إلى نسمة خفيفة من الهواء هبت لتوها على البحر الساكن؟ أم تشير إشارة عميقة المغزى إلى حارس المؤخرة، حتى أخذ يعرك بأسنانه السوداء ويلوي بشدقه قرص التبغ الذي بيده، ولم يتنازل بالرد على سؤال بيلي المتحمس

على الرغم من أنه أعاده عليه وكرره، إذ تلك كانت عادته أن يلزم الصمت الرهيب حين يواجه بالأسئلة التي تشكك في أي من نبوءاته التي يرسلها مقتضبة غامضة أبعد ما تكون عن الوضوح غالبًا، بل إنها لتسهم في خلق هذا الغموض الذي يحيط بكل التنبؤات الدلفية[1] التي تصدر عن أي ركن من أركان الأرض.

ولعل التجربة الطويلة هي التي أفضت بهذا الكهل إلى هذا الضرب من الحرص والحيطة الحذرة التي تنأى به عن التدخل في أي شيء مهما يكن، وعن بذل النصيحة لأي مهما يكن..

U U U

ومهما يكن من أمر فإنه على الرغم من الإصرار الحاسم من جانب الحكيم على أن المشرف على الحراسة هو من وراء كل هذه التجارب التي يمتحن بها بيلي على ظهر السفينة «أندوميتابل» فإن البحار الفتى كان على استعداد أن يردها إلى شخص آخر إلا هذا الرجل الذي «على حد تعبير بيلي» لا يفتأ يلقاه بالكلمة الحلوة، الأمر الذي يثير الدهشة والتعجب... ولكنه في الواقع ليس فيه ما يدعو إلى كثير من الدهشة والاستغراب؛ إذ الحق أن بعض البحارة رغم بلوغهم طور النضج يظلون في تقديرهم لبعض الأمور بسطاء بساطة تخلو من البصيرة بشئون الحياة. ولكن عابر البحار الشاب الذي له مزاج فتانا حارس السارية الرياضي لم يزد عن كونه رجلًا لم يجاوز طور الطفولة.

(١) الدلفية نسبة إلى Delphi.

وبراءة الطفولة في تمها ليست إلا مظهرًا لجهالتها المطبقة ومن ثم فكلما أبرق الذكاء وزاد، خبت البراءة، وتضاءلت بيد أن الأمر مع بيلي لم يكن كذلك، فهو وإن كان ذا ذكاء متطور على ما عهدناه إلا أن سذاجة الطفولة وبراءتها ظلتا تلازمانه دون أن تتأثرا في جل أموره. والحق أن تجارب الحياة هي خير معلم، ومع ذلك فإن ما مر ببيلي من سنوات عمره لم يتح له إلا حظًّا قليلًا من التجربة، أضف إلى هذا أنه كان عاطلًا من الحس الملهم بالشر؛ ذلك الحس الذي يفوق التجربة عند بعض النفوس غير الخيرة أو النفوس التي لم تتكامل لها الخيرية، ومن ثم فهذا الحس بالشر عن طريق الإلهام قد يتملك حتى الشباب كما ثبت ذلك بجلاء في كثير من الحوادث.

ترى ماذا يستطيع بيلي أن يعرف عن الإنسان في أطواره؟ إنه لا يكاد يعرف منها إلا الإنسان البحار فحسب؛ البحار من الطراز القديم، البحار الحقيقي حارس السارية. والبحار من حداثته حتى شيخوخته- وإن يكن ينتمي إلى الجنس نفسه الذي ينتمي إليه الجندي في البر- إلا أنه متميز عنه من بعض الوجوه بميزات يتفرد بها؛ فالبحار هو الصراحة، والجندي هو الدهاء والحيلة. إن الحياة ليست لعبة بالقياس إلى البحار تتطلب الحكمة وبعد النظر، وليست لعبة شطرنج معقدة تبدأ بتنقلات قليلة صريحة مستقيمة ثم تبلغ غايتها بطرق ملتوية ماكرة، إنها لعبة ملتوية مملة جافة قلما تساوي تلك الشمعة المسكينة التي تتوهج محترقة لتضيء للاعبيها أثناء المباراة.

أجل إن البحارة كطبقة يعتبرون من حيث الشخصية جنسًا شابًا لم

يكتمل النضج، وهم حتى في انحرافاتهم يتميزون برعونة الشباب، وهذه الصفات تصدق بصفة خاصة على البحارة في أيام بيلي. وبعد هذا فثمة أشياء معينة وإن انطبقت على كل البحارة فهي تؤثر بشدة ووضوح في نفس البحارة الصغار هنا وهناك، وقد اعتاد البحارة أيضًا أن يطيعوا الأوامر دون أدنى مناقشة؛ فحياتهم على ظهر البحر مسيرة تسيرها لهم قوى من الخارج، ومن ثم فهم لا تتاح لهم فرصة التعامل الحر المتعدد مع البشرية حيث جعلهم هذا التبادل المطلق على قدم المساواة ولو في الظاهر على الأقل توخي شيئًا من عدم الثقة يتناسب مع الموقف في معاملاتهم: هذا الشك ليس طابع رجال الأعمال فحسب بل هو طابع كل رجل تمرس بالدنيا واتصل بناسها حتى ليمارس هذا الشك لا شعوريًّا. ويدهش بعضهم دهشة حقيقية حين يقال له إن هذا الشك من خصائصه العامة.

ولم يواجه بيلي بد في أي وقت بعد الحادث الصغير الذي وقع له في العنبر أية متاعب إطلاقًا، لا فيما يخص سرير نومه أو حقيبة ملابسه أو أي شيء آخر يخصه، أما البسمة التي كانت تشرق عليه أحيانًا فتدفئه، والكلمة الحلوة العابرة فقد ظلتا تختلفان عليه وتواتيانه إن لم يكن بصورة أغلب فبصورة أوضح من أي وقت مضى.

وبغض النظر عن كل هذا فقد كانت هناك مظاهر معينة أخرى أخذت تبدو الآن للعيان، كان كلاجارت حين يلقي بنظرة غير ملحوظة على بيلي وهو يخطر في حزامه على سطح المدافع العلوي أثناء نوبة الحراسة الحرة الثانية صارفًا وقت الفراغ في تبادل النكات السريعة مع زملائه الشبان من بين جموع المتنزهين فوق السطح، يتابع الفتى المرح

بهذه النظرة وعلى وجهه مسحة مستقرة من التأمل الممزوج بالكآبة وعيناه تفيضان بقطرات من الدمع السخين، وعندئذ يبدو كلاجارت وكأنه رجل الأحزان... أجل وأحيانًا تطغى على هذه اللمحة الكئيبة لمسة من الوجد الرقيق تنم عن رغبة مكبوتة تراوده في حب بيلي بد كان في مقدوره أن يظهرها لولا الظروف وخشية الناس، ولكن هذه اللمحة كانت موقوتة لا تلبث أن تتبخر ويحل محلها نظرة قاسية لا تلين تكفيرًا عن هذا الوجد، وهذه النظرة في قسوتها يربدّ لها وجهه وينتفض، ويستحيل لونه إلى ما يشبه شجرة الجوز المغضنة، بيد أنه أحيانًا أخرى كان حين يسبق إلى لمح حارس السارية قادمًا نحوه ينتحي جانبًا عندما يقاربه ليدعه يمر وهو يرقبه عن كثب وقد لمعت نواجذه في سخرية كسخرية المتنكر وأحيانًا أخرى حين يلقاه مصادفة وفجأة على غير انتظار تومض عيناه ببريق أحمر كأنه الشرارة النارية تنبعث من سندان الحداد في دكانه المظلم. والغريب في هذا البريق الخاطف الوحشي أنه كان يصدر من حدقتين لونهما أقرب ما يكون في حالة الهدوء إلى اللون البنفسجي الداكن وهو أرق الألوان وأكثرها شفافية.

على أن هذه النزوات التي كانت تحدث على ظهر السفينة ما كان يمكن أن تؤخذ وحدها دون أهدافها ولكنها مهما يكن من شيء كانت أعقد من أن تستطيع طبيعة كطبيعة بيلي أن تستنتج منها شيئًا؛ فقد كانت قوى بيلي أدنى من أن تساير مثل هذا الضرب من النظم الروحية الحساسة التي توحي لبعض ذوي النفوس البريئة الجاهلة أحيانًا بحكم الغريزة أن وراءها نذرًا بأن شرًّا يوشك أن يحل..! ولكن كل ما دار في خلد بيلي

تجاه هذه النزوات لم يزد على أن إحساسه بأن الضابط المنوب يتصرف تصرفات غريبة في بعض الأحيان. وظلت البسمة العارضة التي يلقاه بها أحيانًا والكلمة الحلوة التي يشجعه بها حين يتحدث إليه هما هما لم يتغير مضمونهما عنده ولا مغزاهما لديه، فالبحار الشاب لم يسمع قط شيئًا عن الرجل الذي يعطيك من طرف اللسان حلاوة.

ولو أن حارس السارية الأمامية قد دار بخلده أو ثبت في وعيه أنه قال أو فعل ما يثير حفيظة هذا الضابط المنوب لتغير الوضع ولتمزق عن بصيرته الغشاء، ولصار أرهف حسًّا وأحدّ بصرًا، ولكنه ظل على ما هو عليه تغشي البراءة بصيرته.

وكانت هذه حاله بالقياس إلى مسألة أخرى عرضت له، فقد بدأ ضابطان أدنى رتبة من كلاجارت: هما حارس الأسلحة وحارس المخازن السفلى، وهما شخصان لم يسبق لبيلي أن تبادل معهما أية كلمة، فمكانه في السفينة لم يدع له فرصة للاتصال بهما؛ بدأ هذان الضابطان يلقيان على بيلي كلما صادف أن لقياه نظرة غريبة لها مغزاها وتدل على أن صاحبي النظرة يضمران شرًّا في ذات نفسيهما ضد صالح المنظور إليه. ولكن بيلي وهو سادر في براءته لم يجل بخاطره أن وراء هذه النظرة ما وراءها مما ينبغي أن يعني به، بل ولم ير فيها ما يثير أية ريبة مع أنه كان يعرف عن يقين أن حارس الأسلحة وحارس المخازن السفلى ومعهما الكاتب العسكري والصيدلي وغيرهما ممن هم في رتبة مماثلة يقيمون طبقًا للتقاليد البحرية مع الضابط المنوب في عنبر واحد، وأنهم بحكم هذه الرفقة آذان مهيأة لاستماع ما يسر إليهم بلسانه.

ولكن هذا الحب العام الذي كان يكنه البحارة لفتانا الجميل وأثبتته الحوادث لاستقامته ورجولته الصريحة، ولهذه الطبيعة الخيرة الغلابة فيه، والتي لا تدل على أي تفوق عقلي وإن بدأت تثير شعورًا بالحسد والرغبة في الإساءة بغير حق، هذه النوايا الطيبة التي كان يستشعر بها من جانب معظم إخوانه على ظهر السفينة جعلته أقل الناس عناية بمثل هذه المظاهر الصامتة التي كانت توجه إليه كتلك التي أشرنا إليها آنفًا، وذلك أنه لم يكن وهذه حاله بمستطيع أن يسبر غورها ليستخرج ما وراءها من مرام وأهداف.

أما ما كان من أمر حارس المؤخرة فإنه على الرغم من أن بيلي لم يكن يراه إلا غبًا للأسباب التي سبق ذكرها إلا أنهما حين كانا يلتقيان مصادفة أو عرضًا كان حارس المؤخرة يسارع بلا تكلف إلى الإيماء له في بشاشة ظاهرة وأحيانًا يردف الإيماءة اللطيفة بكلمة أو كلمتين تنمان عن لطف المعشر. ومهما تكن الحقيقة التي وراء المشروع الأصلي لهذا الفتى الغامض أو المشروع الذي كان هو وسيطه فالذي لا مرية فيه أن سلوكه في هذه المرات التي صادفه فيها بيلي يدل على أنه أسقط هذا المشروع من حسابه كلية.

والظاهر أن نموه المبكر في الإجرام «وكل مجرم سوقي باكر النماء في هذه الناحية» قد خدعه فانخدع في فتانا البحار ومن ثم فالرجل الذي نصب شراكه ليصيده باعتباره غرًا ساذجًا قد غلبه على أمره وفوت عليه غرضه ببساطته البسيطة وبجهالته الجاهلة.

ولكن الأذكياء حين ينظرون في الأمر قد يذهب بهم التفكير إلى أنه

من غير المقبول عقلًا أن يكف بيلي عن متابعة حارس المؤخرة والذهاب إليه في مكانه ليستفسره في سذاجة عن الهدف الذي كان يرمي إليه بحديثه الأول الذي فاتحه فيه في شرفة مقدمة السفينة على عجل وفي غير توقع. والأذكياء قد يرون أيضًا أنه من طبيعة الأشياء بالنسبة إلى بيلي أن يواصل سعيه على السفينة يتحسس بعض المجندين الآخرين من المجبرين على الانخراط في سلك البحرية ليكشف دخيلة الأمر إن كان للأمر دخيلة في هذه الرسالة الغامضة التي حملها له هذا المبعوث والتي تنطوي على اقتراحات تبغي التآمر على إحداث ثورة على الرؤساء فوق ظهر السفينة. أجل، قد يكون هذا شأن الأذكياء ومنهجهم في التفكير، ولكن قد يكون الأمر في شأن إدراك شخصية كشخصية بيلي بد حق الإدراك في حاجة إلى شيء آخر أو شيء أكثر من مجرد الذكاء.

أما الأمر بالنسبة لكلاجارت فإن جنون «المونومانيا» في هذا الرجل - إن صح أن هذه كانت حاله حقًّا - كما بدا منه لا إراديًا في النوبات والتقلصات المفاجئة التي شوهدت خلال الظواهر التي سبق تفصيلها والتي يخفيها عادة بشيء من ضبط النفس وسمات التفكير، ولكن هذا الجنون عنده كان كالنار المختفية في باطن الأرض تأكل كل ما حولها وتعمق مجراها يومًا بعد يوم، ومن ثم كان لا بد أن ينفجر من هذه النار شيء حاسم خطير.

U U U

والواقع أن شيئًا ما لم يقع بعد الحديث الغامض الذي دار في شرفة مقدمة السفينة والذي قطعه بيلي فجأة قبل أن يكتمل، بل ولم يقع شيء يمكن أن يقال إنه يمس موضوع الحديث من قريب أو بعيد إلى أن تتالت الأحداث التي هي بسبيلها إلى أن تقص عليك الآن.

لقد ذكر في غير هذا المكان أن وحدات الأسطول الإنجليزي في المضايق حين كانت تعوزها الفرقاطات في ذلك الوقت- والفرقاطات أقوى أشرعة من السفن الحربية العادية- كانت تستخدم «الأندوميتابل» أحيانًا لا كبديل تحت يدها متوافر يمكن أن يقوم بعملية سفن الكشافة فحسب، بل كانت في بعض الحالات توفد لأداء مهمات فردية ذات أهمية بالغة، ولم يكن اختيارها لما تمتاز به من أشرعة قوية ليست مألوفة في سفن من درجتها فحسب، بل الواقع أن مرد ذلك في الأغلب كان شخصية ربانها، فقد هيأته هذه الشخصية بنوع خاص ليحمل عبء أي مهمة تناط به؛ ذلك أنه كان سريع البديهة يستطيع أن يبادر إلى حسم كل المصاعب غير المنتظرة التي قد تواجه الربان وتتطلب معرفته وقدرته إلى جانب صفات الريادة البحرية والتمرس بشئونها. وفي رحلة من هذه الرحلات المهمة، رحلة نائية بعدت فيها السفينة إلى أقصى مدى ممكن عن قاعدة أسطولها- في هذه البقعة النائية وفي الفترة الأخيرة من نوبة الحراسة الثانية بعد الظهر وقعت الأندوميتابل على غير انتظار على سفينة للأعداء أثبتت المشاهدة أنها فرقاطة، ولكن هذه الأخيرة حين تبين لها من خلال مناظرها أن الأندوميتابل تفوقها عددًا وعدة وأنها الخاسرة إن دخلت في معركة معها ولت الأدبار وفردت كل أشرعتها لتتمكن من الهرب. وبعد مطاردة

طرحت فيها كل أمل تقريبًا ودامت حتى منتصف نوبة المساء الحرة الأولى استطاعت أن تفوز بتحقيق أملها في الهرب.

ولم يمض طويل وقت على انتهاء هذا الطراد، بل وقبيل أن تزول آثار الدهش والحماسة اللذين سببتهما هذه الحادثة ظهر الضابط المنوب إلى جانب السارية الرئيسية صاعدًا من دائرة عمله المملوءة بالخلايا، وقلنسوته بيده، ووقف في احترام منتظرًا أن يلتفت إليه الكابتن ڤير ربان السفينة الذي كان يقوم بجولة فردية على ظهر السفينة، وقد بدا عليه من غير شك الضيق إلى حد ما لفشل المطاردة. وقد كانت البقعة التي اختارها كلاجارت للوقوف مخصصة لرجال أقل رتبة يقفون فيها التماسًا لحديث خاص مع ضابط السطح، أو مع الربان نفسه، وإن يكن الحديث مع هذا الأخير لم يكن من المألوف في هذه الأيام أن ينشده بحار أو صف ضابط اللهم إلا في أحوال استثنائية، ولأسباب استثنائية يجيزها العرف البحري.

وفي اللحظة التي كان فيها الربان يهم بالتحول إلى ناحية السكان «الدفة» وهو غارق في تأملاته أثناء نزهته أحس بوجود كلاجارت ولمح قلنسوته المخلوعة تعبيرًا عن انتظاره لحديث معه، ويجمل أن يقال في هذا المقام إن معرفة الكابتن ڤير الشخصية بضابط الصف هذا قد بدأت عند إبحار السفينة من أرض الوطن في المرة الأخيرة، إذ نقل كلاجارت من السفينة التي يعمل عليها وحجزت في الحوض الجاف لداعي الإصلاح إلى الأندوميتابل ليحل محل ملاحظ الأندوميتابل السابق الذي أصيب بالعجز واستبقى على الشاطئ للعلاج.

وما إن لاحظ الربان شخصية الواقف في انتظاره في هيئة تدل على

رغبته في الإفضاء إليه بشيء ما حتى علا وجهه تعبير غريب لا يغاير في طبيعته مثله الذي يرتسم على الوجه حين يلقى الإنسان مفاجأة وعلى غير انتظار شخصًا وإن يكن معروفًا له، إلا أن التعارف بينهما لم يمتد زمنًا يسمح بالمعرفة الشاملة لنفسيته وأحواله، ولكن يزيد عليه أن منظر هذا الملاقى يثير في النفس لأول وهلة شعورًا بالنفرة المقبضة، على أن الربان لم يلبث أن توقف عن المسير واستعاد سمته الرسمي المألوف فيما خلا شيئًا من الضيق ينم عن نفاد الصبر بدا في نطقه للعبارات الأولى التي وجهها إلى ملاحظ السفينة حين قال له: «خيرًا، ماذا وراءك أيها الملاحظ؟».

وفي مظهر التابع المحزن الذي قضت عليه الضرورة أن يكون حامل أنباء السوء، وفي إصرار المتزمت الذي يلح عليه ضميره في أن يدلي بكل شيء في صراحة مع الحرص في الوقت نفسه على الابتعاد عن الغلو والمبالغة حرصًا لا يقل قوة عن رغبته في المصارحة، بدأ كلاجارت يتكلم عندما تلقى هذه الدعوة إلى الإفضاء بما عنده، أو بالأحرى عندما أمر أن يفضي بما لديه. وكان ما قاله كلاجارت إذا ما استعملت لغة المثقفين في نقله يعبر عما يلي، وإن لم تكن كلماته هي هي بالضبط. قال: إنه شاهد أثناء الطراد وخلال الاستعدادات التي كانت قائمة لمواجهة الموقف الذي يترتب على اللقاء المفاجئ المحتمل بين هذه السفينة وسفينة الأعداء، شاهد ما يكفي لإقناعه بوجود بحار واحد على الأقل له شخصية خطرة على ظهر السفينة التي لا تضم عددًا من البحارة فحسب كان لهم ضلع في المتاعب الخطيرة التي حدثت من قبل، بل تضم عددًا آخر من أمثال هذا البحار الخطير موضوع الحديث دخلوا في خدمة جلالة الملك عن طريق

آخر غير طريق التجنيد.

وحين بلغ هذه النقطة قاطعه الكابتن ڤير في شيء من نفاد الصبر قائلًا: «كن صريحًا يا رجل ولا تلتو وقل البحارة المجندين قسرًا».

وأومأ كلاجارت علامة الإذعان واستأنف حديثه قائلًا: إنه أي كلاجارت، قد بدأ يشك مؤخرًا في أن هناك حركة ما ميدانها سطح المدافع تدور في الخفاء ويدفعها البحار موضوع الحديث، ولكنه لم ير من حقه أن يرفع تقريرًا عن شكوكه ما لم يظهر ما يؤيدها أو يوضح معالمها، بيد أنه مما لاحظه على البحار المومأ إليه بعد ظهر اليوم بدا له أن الريب التي كانت تساوره من أن ثمة أمورًا عدائية تتخذ سبيلها فوق ظهر السفينة، قد تطورت وتحولت إلى مرتبة تكاد تقرب من أن تكون يقينًا، ثم أردف يقول إنه أحس إحساسًا عميقًا بالمسئولية الخطيرة التي تترتب على إبلاغ مثل هذا الأمر بما ينطوي عليه من النتائج المحتملة في مثل الظروف للشخص المعني بالذات بالإضافة إلى أن هذا الإبلاغ من شأنه أن يزيد من عوامل القلق الطبيعية التي لا بد أن تراود نفس كل قائد بحري إزاء الثورات غير العادية، لا سيما إذا كانت قريبة عهد بتلك التي قال والأسف يملأ فؤاده أن لا حاجة به إلى تسميتها.

والحق أن الكابتن ڤير قد أخذ على غرة أول الأمر حين فاتحه كلاجارت بهذا الحديث، فلم يستطع أن يخفي قلقه كلية، ولكنه حين مضى كلاجارت في حديثه استطاع أن يجمع أطرافه وأن يتحول إلى الهدوء تحت تأثير شيء ما لمسه في الطريقة التي كان الشاهد يتبعها في الإدلاء بشهادته. ومهما يكن من شيء فقد كف عن مقاطعته وانطلق

كلاجارت يتابع روايته إلى أن ختمها بهذه العبارة:

- «لا قدر الله يا صاحب السعادة أن تصبح الأندوميتابل مسرحًا لتجربة كتجربة...!».

وعندئذ قاطعه الربان بقوة متحكمًا في الحديث وقد طغى الغضب على ملامح وجهه، وقد تنبأ بالغريزة بالسفينة التي كان الآخر على وشك أن يذكر اسمها؛ وهي تلك السفينة التي اتخذت فيها الثورة التي وقعت في «نور» طابعًا تراجيديًا هدد بالخطر حياة قبطانها قائلًا:

- «ما علينا من هذا».

وفي ظل هذه الظروف تميز القبطان غضبًا وثارت ثائرته لهذه الإشارة المقصودة المتعمدة. ورأى في إقدام ضابط صف على الإشارة إليها في حضرة قبطانه في غير ما داع إلى ذلك على حين يتحفظ الضباط الرسميون كل التحفظ في جميع الظروف والمناسبات حين يشيرون إلى هذه الحوادث الأخيرة، رأى في هذا الإقدام الجريء مكابرة غير محتشمة لا تليق بمثله، بل إن شدة حساسيته في كل ما يتصل باحترامه لنفسه صورت له في ضوء الملابسات القائمة أن هذه الإشارة تنطوي على محاولة لإخافته، وإثارة الرعب في نفسه. ولم تخل الحال أول الأمر من شيء من الدهشة يخالطه كيف أن شخصًا كهذا كان في كل الأوقات التي وقع فيها تحت حسه يظهر قدرًا ملحوظًا من اللباقة والكياسة في أعماله يجانبه التوفيق في هذا الحادث بالذات ويبدو خلوًا من كل لباقة.

على أن كل هذه الأفكار التي كانت تدور في خلده هي ومثيلاتها

المريبة قد حلت فجأة محلها فكرة ملهمة وإن تكن غامضة في تكوينها إلا أنها أدت دورها عمليًا في تهيئته لتقبل الأنباء السيئة. أجل لقد كانت أنباء سيئة بيقين. ومع خبرة كابتن ڤير الطويلة وممارسته لكل ما يتصل بحياة سطح المدافع المعقدة التي لها ككل حياة أخرى خباياها السرية وجوانبها المريبة، تلك الجوانب المجمع على استنكارها، إلا أنه لم يسمح لنفسه أن تنساق في قلق سابق لأوانه نتيجة للاتجاه العام الذي بدا في تقرير تابعه.

وعلاوة على ذلك فإن الأمر إذا كان يقتضي بالنسبة للأحداث الجديدة اتخاذ عمل حاسم عند أول بادرة محسوسة تنبئ عن العودة إلى الثورة والعصيان. فقد بدا له بعد أن استعرض كل ذلك أنه قد يكون من مجانبة الحكمة إحياء فكرة عدم الولاء والعصيان الباقية الأثر بجرأة مبالغ فيها لا سند لها نتيجة للاعتماد على خبر مخبر، وحتى ولو كان تابعه من بين أعماله أن يلاحظ بوليسيًا تصرفات جماعة البحارة فوق ظهر السفينة، والحق أن هذا الشعور ما كان ليراوده ويغلب عليه لولا أن الحماسة الوطنية التي أبداها كلاجارت في مناسبة سابقة قد أغضبته وأثارت حنقه إلى حد ما لظهوره بمظهر أحس هو فيه إقحامًا بالغًا وسرفًا في الفضول وإجهادًا بقصد الإضرار، يضاف إلى هذا أن شيئًا ما قد بدا له من تماسك تابعه ورباطة جأشه وطريقته في العرض التي لا تخلو من مباهاة واستعراض لقوته في تحديد المواصفات، مما أعاد إلى ذاكرته قصة ندت عنها لأحد رجال فرقة موسيقية كان شاهد زور في قضية عقوبتها الإعدام أمام المحكمة العسكرية على الشاطئ، وقد كان هو (أي كابتن ڤير) أحد أعضائها عندما كان ملازمًا.

ولم يقف الأمر بثير عند حد الصد التحكمي الذي صادر به أقوال كلاجارت الخاصة بالإشارة الموقوتة بل سارع باتباع ذلك بهذه العبارة: «لقد قلت إن هناك على الأقل شخصًا واحدًا خطرًا على ظهر هذه السفينة. سمّ هذا الشخص».

- اسمه «وليم بد» حارس السارية يا صاحب السعادة.

وكرر الكابتن ڤير في دهشة حقيقة:

- «وليم بد» أتعني هذا الرجل الذي أخذه الملازم راتكليف من السفينة التجارية منذ وقت غير طويل؟.. هذا الشاب المحبب إلى رجال السفينة جميعًا؛ أتعني بيلي البحار الوسيم كما يسمونه؟

- هو بعينه يا صاحب السعادة، فهو على الرغم من شبابه ووسامة طلعته ليس بالهين وليس بلا سبب يا صاحب السعادة ما يبثه في إخوانه من الإيحاء بمحبته والفوز برضاهم حتى إذا تعرض لمأزق ما قدم له الجميع على الأقل الشهادة الطيبة مهما تكن المخاطر التي يتعرضون لها. ألم تتح الفرصة يا صاحب السعادة للملازم راتكليف ليروي لك قصة اللعبة الماهرة الماكرة التي قام بها بد عندما أخذ عنوة في السفينة التجارية وكيف قفز مصعدًا إلى القارب الموضوع تحت دفة السفينة التجارية؟ إنها حركة وإن غلفت في ظاهرها بروح المرح والطيبة إلا أنها في «باطنها» تنم عن التمرد على تجنيده قسرًا.. لقد استوقف نظرك منه يا صاحب السعادة قسامة وجهه، ولكن الخطر يكمن دائمًا وراء بهاء المنظر؛ ففي الحشائش ذوات الأطراف الحمر الباهرة التي تسر الناظرين تنصب الحبائل لاصطياد البشر.

والحق أن البحار الوسيم بقوامه الملحوظ الفريد بين زملائه من البحارة قد استرعى انتباه القبطان بطبيعة الحال منذ البداية. وعلى الرغم من أنه بصفة عامة لا يميل إلى الإبانة عن رأيه لضباطه إلا أنه في هذه المرة هنأ الملازم راتكليف على حظه الموفق الذي هداه للوقوع على هذا النموذج البديع للجنس البشري الذي يصلح عاريًا لأن يكون نموذجًا لتمثال يصنع لآدم في شبابه قبل أن يهبط من الجنة.

أما عن قصة وداع بيلي للسفينة «حقوق الإنسان» التي رواها له فعلًا الملازم راتكليف ولكن بطريقة تنم عن الرضا عن تصرفه؛ فقد كانت قصة طيبة أكثر منها أي شيء آخر، وعلى الرغم من أن الكابتن ڤير قد أخطأ في فهمها إذ أخذها على أنها اندفاعة ساخرة، إلا أنه أكبر من شأن هذا المجند المجبر من أجل هذا التعبير الساخر؛ فهو كبحار عسكري قد أعجب بهذه الروح التي تستطيع أن تتقبل التجنيد الإجباري بهذا المرح وهذا التعقل. أما سلوك حارس السارية فيما وقع تحت ملاحظة القبطان فقد أكد عنده البداية السعيدة التي صاحبت مقدمه إلى السفينة، أما صفات المجند كبحار عامل فقد كانت بحيث فكر في التوصية به عند الضابط التنفيذي ليرقيه إلى مكان آخر يجعله أرقب إلى ملاحظته المباشرة دائمًا، وقد عنى بذلك أن يعهد إليه بقيادة حراسة السارية اليمنى ليحل في مراقبة الجانب الأيمن محل رجل جاوز الشباب وأصبح في رأيه لهذا السبب وغيره أقل صلاحية لهذا العمل.

وجدير بالذكر في هذه المناسبة أن نقول إن رجال السارية اليمنى في السفينة ليس من عملهم طيّ ونشر الأشرعة الثقيلة، كما هي الحال في

الساريتين الأمامية والرئيسية، ومن ثم فالفتى الشاب- لا سيما إذا كان قوي البنية- لا يعتبر صالحًا فحسب لأداء هذه المهمة بل إن إيكال هذه الحراسة إليه يعتبر اختيارًا ضمنيًا ليتولى قيادة هذه الحراسة؛ إذ إن كل من تحت إمرته من البحارة غض الإهاب لا يعدون أن يكونوا صبية في غالب الأمر. وقد كان رأي كابتن ڤير في بيلي منذ اللحظة الأولى أنه- على حد تعبير رجال البحرية في هذا الزمان- مقايضة رابحة لحساب الملك، أو بعبارة أخرى إنه رصيد ضخم لحساب بحرية جلالة الملك مقابل مصروفات تافهة أو بلا مقابل إطلاقًا.

وبعد فترة تأمل قصيرة طافت فيها كل هذه الذكريات التي ذكرناها آنفًا في وضوح بمخيلته ووزن خلالها المغزى الذي استهدفه كلاجارت بتلميحه الأخير الذي حملته عبارته التي قال فيها: «إن تحت الحشائس الباهرة تنصب الحبائل لاصطياد البشر». والحق أنه كلما ازداد تمعنًا في هذه العبارة ووزنًا لها قل احتفاله بها وتعويله على صدق نوايا قائلها. وفجأة بعد هذا الصمت التفت إلى كلاجارت وقال له في صوت خفيض: «أجئت لتروي لي هذه القصة الغامضة أيها الملاحظ؟ وفيما يختص ببد هل لك أن تذكر لي عملًا واحدًا، أو قولة واحدة من جانبه تؤيد ما ذهبت إليه من اتهامات ضده؟ هات ما عندك فأنا في الانتظار». ثم اقترب منه وهمس في أذنه، خذ حذرك في كل ما تقول وراجع نفسك فإن الأمر في مثل هذه الحالة يقضي بمعاقبة شاهد الزور.

- أواه يا صاحب السعادة!

قالها وهو يتنهد هازًا رأسه المستدير في رفق علامة على استنكار

محزون لهذه اللهجة القاسية التي لا يستحقها، ثم كبح جماح غضبه واشرأب بعنقه ليؤكد اعتزازه الصادق بنفسه. ومضى يروي كلمات معينة وأفعالًا معينة زاعمًا أن بيلي قد قالها في فترات مختلفة وهي في مجموعها إذا تأيدت تؤدي إلى إدانة بيلي إدانة قاتلة، ولم يكتف بذلك بل أضاف إلى بعض هذه التأكيدات المزعومة قوله إن الدليل الحسي على صحتها ليس بعيدًا عن متناول يده.

وحملق الكابتن ڤير بعينيه الداكنتين في صبر نافد وعدم ثقة في عيني كلاجارت البنفسجيتين الهادئتين محاولًا أن يسبر غورهما ويستشف حقيقة الأمر في أعماقهما. ثم عاود الاستماع له، وتوقف هنيهة يجتر ما سمعه ويقلبه على وجوهه. وكانت الحال التي كشفت عنه أن كلاجارت نفسه وقد تحرر في هذه الهنيهة من نظرات الكابتن الفاحصة الناقدة استقرت ملامحه في نظرة من العسير تفسيرها، نظرة تشف عما يدور في دخيلة نفسه من خطط، نظرة أشبه ما تكون بنظرة أبناء يعقوب الحاقدين الحاسدين على أخيهم يوسف وهم يحاولون خداع أبيهم الشيخ المرهق بمتاعبه ويزيفون عليه قميصًا ملطخًا بالدم ليوهموه بأنه قميص يوسف.

وعلى الرغم من تميز الكابتن ڤير ببعض الصفات الخلقية التي تمكن له في حديث سريع حازم مع أي شخص من رجاله أن يكشف عن حقيقة نواياه وطبيعته الأساسية كشفًا صادقًا إلا أنه في هذه المرة بالنسبة لكلاجارت وكشف حقيقة ما يعتمل في صدره تأثرت مشاعره بشكوك قوية مثقلة بريب غريبة أكثر مما تأثرت بالاقتناع الملهم. ولم تكن الحيرة التي بدت عليه في هذا الموقف من شيء يمس المخبر عنه، بل

كان أكثرها مرده إلى التفكير في خير الوسائل التي يستطيع بها أن يعالج الموقف بالنسبة للمخبر. وهو بالذات ما ذهب إليه تفكير كلاجارت. والحق أن أول ما ذهب إليه ڤير هو بطبيعة الحال أن يطالب كلاجارت بالدليل الحسي لمزاعمه، وهو ما زعم أنه قريب المنال. ولكنه عاد فقدر أن مثل هذا الإجراء سيشيع المسألة ويخرجها إلى حيز العلنية، وهو أمر قد لا يكون مستحبًا في هذه المرحلة لما يحدثه من بلبلة غير مرغوب فيها في صفوف البحارة وقد تكون شهادة كلاجارت شهادة مزورة لا سند لها، فإذا صح هذا طوى الموضوع وانتهى أمره. وعلى ذلك قرر قبل أن يفحص التهمة أن يختبر الشاهد عمليًا أولًا ليستبين صدق روايته، ورأى أن من الخير أن يقوم بهذا الاختبار بطريقة هادئة مستترة.

وكان هذا الإجراء الذي انتهى إليه يقتضي تغيير المكان والانتقال إلى مكان آخر غير سطح السفينة الفسيح، مكان يكون أقل تعرضًا للملاحظة، ذلك أنه على الرغم من أن ضباط المدافع القلائل الذين كانوا في هذا الوقت قد تنحوا إلى الجانب المقفل من السفينة مراعاة منهم لآداب البحرية حين بدأ القبطان نزهته على الجانب المفتوح من السفينة، وعلى الرغم من أنهم حرصوا أثناء الحديث الذي دار بينه وبين كلاجارت أن يظلوا على مبعدة، وعلى الرغم من أنه خلال الحديث ظل صوت الكابتن ڤير خفيضًا وصوت كلاجارت هادئًا هامسًا، وعلى الرغم من أن الريح عاونت على أن يظل حديثهم بمنأى من السمع؛ إلا أن استطالة الحديث وامتداده قد أثار فعلًا انتباه بعض حراس السواريات العليا وبعض البحارة في وسط السفينة وأطرافها.

وما إن حزم الكابتن ڤير أمره على اتخاذ تدابير معينة حتى بدأ لتوه في التنفيذ والتفت فجأة إلى كلاجارت وسأله:

هل «بد» في نوبة الحراسة الآن في أعلى السارية؟

وأجاب كلاجارت: كلا يا صاحب السعادة. وعندئذ نادى ڤير أقرب رجال السفينة إليه قائلًا: يا سيد ولكز، قل لألبرت أن يوافيني. وكان ألبرت هذا تابع القبطان الذي يقوم على تجهيز فراشه، وكان تابعًا بحريًّا يثق القبطان في حرصه وإخلاصه وتكتمه. وأقبل الغلام فقال له ڤير: أتعرف بد حارس السارية؟ أجل يا مولاي. إذن اذهب وابحث عنه. إنه الآن في فترة الراحة، فإذا وجدته فأخبره أنه مطلوب هنا في مؤخرة السفينة، وحاول ألا يسمعك أحد وأن تهمس إليه بهذا ودبر الأمر بحيث لا تتاح له فرصة التحدث إلى أحد ما؛ اشغله أنت بالتحدث إليه. ولا تشعره أنه مطلوب في غرفتي إلا بعد أن تصل إلى المؤخرة.. أفهمت ما أعني؟... اذهب إذن. وأنت أيها الملاحظ انزل إلى سطح السفينة الأدنى وتجول فيه بعض الوقت حتى إذا تأكدت أنه مضت فترة يستطيع ألبرت أن يعود فيها بصحبة الرجل فقف في هدوء على أهبة الاستعداد لتتبع البحار وتدخل وراءه.

وما إن رأى حارس السارية العليا نفسه في قمرة القبطان منفردًا فيها مع القبطان وكلاجارت حتى عرته الهشة ولكنها كانت دهشة خلوًا من القلق أو الريبة، وكذلك الطبائع الغرة المتأصلة فيها الأمانة والإنسانية لا تستشعر إرهاصات النذر بالأخطار الجسيمة التي قد تأتيها من بني جنسها بل قد لا تستشعرها إطلاقًا لأنها تغاير طبائعها. والحق أن الخاطر الوحيد الذي طاف بذهن البحار الفتى هو هذا: «لقد كان القبطان دائمًا فيما أرى

عطوفًا عليّ وإني لأظن أنه يريد أن يتخذني بحاره الخاص لأقود له قاربه، وما أحب ذلك إلى نفسي، ولعله قد استدعى ملاحظ السفينة ليسأله عني». وهنا قال القبطان للحارس أغلق الباب وقف من دونه في الخارج ولا تسمح لأحد بالدخول. ثم التفت إلى الملاحظ مستطردًا: والآن أيها الملاحظ قل لهذا الفتى مواجهة ما قلته لي من قبل.

ووقف منهما بغير بعيد ليرقب وجهيهما المتناظرين ويفحصهما.

وفي خطوات محسوبة مقدرة، وفي صمت هادئ متزن كسمت الطبيب في مستشفى المجاذيب يقترب في الساحة العامة للمستشفى من مريض، بدت عليه أعراض نوبة تواتيه بين حين وآخر، تقدم كلاجارت من بيلي في تؤدة ووقف على مقربة منه منعمًا النظر في عينيه بشدة، ثم أعاد في اختصار الاتهامات التي سبق أن أدلى بها.

ولم يدرك بيلي لأول وهلة مغزى هذه الأقوال، ولكن حين أدركها غاضت الحمرة من وجهه وابيض كأنما أصابه البرص، ووقف مبهوتًا غائب الوعي كشخص مصلوب للرجم والعذاب مُلئ فمه بالخوازيق حتى لا يقدر على الصياح. وفي الوقت نفسه ظلت عيون صاحب الاتهام تحملق في العيون الزرق التي اتسعت من الرعب ولكنها بدأت تتخذ مظهرًا آخر؛ بدأ لونها البنفسجي الداكن يستحيل إلى القرمزي الأسود، تلك الأضواء التي تنم عن الذكاء البشري حين يفقد التعبير الإنساني، وجحظت عيناه في برود وبانت أشبه بالعيون الغريبة لبعض الخلائق غير المعروفة في أعماق المحيطات. وكانت النظرة الأولى فيها سحر الثعابين؛ والنظرة الأخيرة فيها نهم السمكة الصاعقة.

وقطع القبطان حبل السكون متأثرًا بمنظر بيلي أكثر من تأثره بمنظر كلاجارت، وقال للفتى الواجم المصلوب: «تكلم يا رجل.. تكلم.. دافع عن نفسك..» ولم يزد هذا النداء بيلي إلَّا خرسًا وحركات بكماء وجمجمة لا تفهم. ويبدو أن الدهشة التي أصابته من جراء هذا الاتهام المفاجئ وهو بعدُ حدث لم ينضج ولم تعركه التجربة، هي و الرعب الذي حل به من متهمه، قد حركا داءه القديم، وهو انعقاد لسانه، بل وزاداه عضالًا في هذه المناسبة. فاشتدت عقدة لسانه وانحبس صوته وأخذ يغمغم في أصوات مختنقة، على حين ظل عقله الواعي الراغب في الاستجابة وكيانه الكامل يبدو عليهما الإجهاد من الألم المرير لعدم المقدرة على إطاعة الأمر بالكلام والدفاع عن النفس رغم ما يبذلان من جهد غير مثمر في هذه الناحية، وقد ظهرت آثار هذا الجهد على وجهه حتى بدا كوجه الراهبة العذراء من سدنة إلهة النار المقضي عليها بالموت في اللحظة التي تدفن فيها حية وهي تجاهد الاختناق في أول الأمر!!!

وعلى الرغم من أن الكابتن ڤير كان إلى هذا الوقت يجهل أن بيلي معرض لهذه النوبات من انعقاد اللسان إلا أنه في الحال أدرك ذلك؛ إذ إن منظر بيلي وهو يجاهد لإخراج صوته قد أعاد إلى ذاكرته في وضوح منظر زميل له في الدراسة كان على جانب كبير من الذكاء أصيب بمثل هذا العجز المفاجئ وهو يهب واقفًا في حماسة أثناء الدرس ليكون الأسبق في الإجابة عن سؤال وجهه إليه المدرس، ومن ثم تقدم من البحار الفتى حتى حاذاه وربت كتفه في رفق ليهدئ من روعه قائلًا له: «لا داعي للعجلة يا بني. خذ وقتك. خذ وقتك».

والحق أن هذه الكلمات الوادعة العطوف قد أنتجت عكس المقصود منها، إذ مست معانيها الأبوية قلب بيلي وحملته على التعجيل، فبذلت محاولات أخرى عنيفة للتغلب على عقدة اللسان والتكلم، ولكن هذه المحاولات انتهت في وقتها إلى زيادة الشلل وتأكيده، وأدت إلى أن يظهر على وجهه تعبيرات كتلك التي تبدو في عملية الصلب تدعو للمشاهدة.

وفي اللحظة التالية وفي سرعة كلمح النار من مدفع منطلق في الليل انطلقت يده اليمنى وسرعان ما سقط كلاجارت إلى الأرض. وسواء أكان هذا عن تعمد أم أن سببه طول الفتى الرياضي الفارع فقد جاءت الضربة كاملة مسددة إلى جبهة كلاجارت المنتظمة والتي تدل في مظهرها على أنها جبهة مثقف، الأمر الذي يعتز به كلاجارت. ومن ثم سقط جسمه طوليًا إلى الأرض كما يسقط لوح ثقيل من الخشب منتصب دفع به إلى أسفل. وشهق شهقة أو اثنتين ثم استوى لا حراك به. وعلى الأثر همس الكابتن ڤير في صوت خفيض:

- «إيه أيها الفتى المنكود الطالع! ماذا فعلت؟.. تقدم وعاوني».

وتعاون الاثنان في رفع الرجل الذي سقط من جذعه حتى يقيماه في هيئة جلوس وطاوعهما الجسد في مرونة ولكن دون حراك. وكان الأمر أشبه بمعالجة ثعبان ميت مما دعاهما أن يعيداه إلى الأرض ثانية. ورفع الكابتن ڤير قامته وانتصب واقفًا وقد أخفى وجهه بإحدى يديه وظل بلا حراك كالجسد المسجى عند قدميه.. ترى أكان مستغرقًا يفكر في كل احتمالات الحادث ومعقباته وماذا ينبغي أن يفعل لعلاجه لا في التو واللحظة فحسب بل فيما يتلو ذلك؟.. ورويدًا رويدًا أخذ يرفع يده عن

وجهه، وحين كشف عن وجهه كان لا بد له أن يبدو في سمت جديد كالقمر حين يخرج من الخسوف، لا بد له أن يبدو في وجه جديد غير ذلك الذي شمله الخسوف. وفعلًا اختفت من وجه ڤير عواطف الأبوة التي أبداها من خلال هذا المشهد لبيلي وحلت محلها صرامة المنظم العسكري. وفي لهجته الرسمية أمر حارس السارية أن يلزم قمرة عينها له في مؤخرة السفينة وأن يظل فيها حتى يستدعى. وقد أطاع بيلي هذا الأمر آليًا وفي سكون، ثم اتجه بعد ذلك إلى باب قمرته الآخر الذي ينفتح على سطح السفينة وقال للحارس الواقف:

- «أبلغ أحد الحراس أن يستدعي ألبرت للحضور إلى هنا».

فلما قدم الغلام دبر القبطان الأمر حتى لا يرى جثة الرجل الممدد على الأرض ثم هتف به:

- «يا ألبرت! اذهب إلى الجراح وقل له إني أريد أن أراه. ولا حاجة بك أن تعود إلا إن استدعيتك».

وحين دخل الجراح- وهو شخصية متزنة جادة مجربة لا يصدها شيء مهما يكن عن أداء واجبها- تقدم إليه الكابتن ڤير ليلقاه وبذلك حال عن غير عمد بينه وبين رؤية كلاجارت ثم قال له مقاطعًا عبارات التحية الرسمية المألوفة:

- «خبرني ما حال هذا الرجل المسجى هناك؟».

وبهذه الكلمات لفت نظره إلى الرجل المتمدد على الأرض.

وألقى الجراح نظرة إلى الرجل المتمدد على الأرض ولكنه رغم

رباطة جأشه وقوة ضبط نفسه لم يستطع إلا أن يجفل لهذا الاكتشاف المفاجئ، وكان على وجه كلاجارت الملازم للصفرة دائمًا دم أسود تخين ينضح من أنفه وأذنيه، ولم يكن حال الرجل المسجى ليخفى على العين الفاحصة الخبيرة المحترفة فقد أدرك الطبيب لأول وهلة دون خطأ أن الرجل ليس حيًّا...

وقال الكابتن ڤير وهو يرقبه باهتمام وإنعام: «أمات الرجل إذن؟».

- أظن ذلك.

- تحقق من ذلك.

وعندئذ أجريت الاختبارات المعتادة التي أيدت النظرة الأولى للطبيب الذي ألقى في قلق مصطنع نظرة تساؤل صارمة على رئيسه، ولكن الكابتن ڤير كان في وقفة جامدة لا حراك فيها وقد وضع إحدى يديه على حاجبه ثم فجأة أمسك بذراع الطبيب في عصبية ثم صاح مشيرًا إلى الجسد المسجي:

- إنه قضاء الله على حنانيا[1] انظر.

وأخذ الطبيب بهذه الحال من الانفعال التي لم يعهدها من قبل في قبطان الأندوميتابل، ولكنه مع جهله الكلي بتفاصيل الحادث الذي وقع لم يفقد الطبيب ثباته المتئد، ولم يبارحه هدوؤه وإن تطلع ثانية في تساؤل عجل إلى رئيسه يستفسره عما جرى حتى انتهى الأمر إلى هذه المأساة.

(١) حنانيا وامرأته سفيرة خرا ميتين لكذبهما على الله. (أعمال الرسل ٥).

ولكن الكابتن ڤير كان قد عاد مرة أخرى إلى وقفته الجامدة مستغرقًا في التفكير، ثم فجأة انتقض وصاح في حماسة: «لقد خر ميتًا بضربة من ملك من ملائكة السماء، ولكن الملك يجب أن يشنق!».

والحق أن الطبيب قد تملكته الحيرة البالغة والاضطراب الشديدان لهذه العبارات المتقطعة المفككة التي لا تعني شيئًا لسامعها، لا سيما إذا كان لم يحط خبرًا بما سبقها من وقائع...!! على أن حيرته لم تطل، إذ استعاد القبطان نفسه وجمع شتاتها وبدأ يقص عليه في اختصار وبلهجة أقل خشونة الظروف والحوادث التي أدت إلى هذه المأساة.

وأضاف القبطان: إن علينا أن نسرع بالعمل، فتعال ساعدني لنقل هذا الجسد إلى قمرة أخرى بعيدًا عن هنا. وأشار إلى قمرة بعينها مواجهة للقمرة التي بقي حارس السارية معتقلًا فيها. وعاود الاضطراب الطبيب من جديد حين طلب إليه هذا الطلب الذي ينطوي على الرغبة في الاحتفاظ بالأمر في طي الكتمان، وهي رغبة بدت في نظره غريبة ليس لها ما يسوغها عنده، ومع ذلك لم يكن أمامه كمرؤوس إلا أن يطيع أمر رئيسه.

وما إن انتهيا من نقل الجثة حتى قال الكابتن ڤير للطبيب بطريقته المألوفة: «اذهب الآن.. اذهب الآن وسأدعو في التو محكمة عسكرية مؤقتة للانعقاد، فأبلغ الملازمين كل ما حدث، وأبلغ الأمر كذلك إلى مستر موردنت كبير البحارة وَأْمُرْهُم جميعًا ألا يذيعوا النبأ وأن يحتفظوا به لأنفسهم».

وحين انسحب الطبيب ليقوم بأداء المهمة التي عهد القبطان بها إليه لم يتمالك أن يكف عقله عن التفكير في عدم جدوى المبالغة في الحرص

والكتمان في بعض الظروف في نطاق المجتمع الإنساني، ذلك أن هذا الكتمان معرض لأن تؤثر فيه ظروف وأقدار ليست في الحسبان، والطريقة المثلى التي اتبعها كابتن ڤير ليتحاشى انتشار النبأ في غير ما ضرورة، وليتحاشى في الوقت نفسه ما يترتب عليه من متاعب قد أدت إلى هذه الحادثة التي قضت بضرورة إذاعة الأمر وإعلانه، بل أدت في ظل الظروف القائمة في البحرية إلى مضاعفة المتاعب وتجسيمها.

غادر الطبيب قمرة القبطان والقلق يأخذ عليه نواحيه، وسوء الظن يتملكه، وأخذ يسأل نفسه: ترى هل أصيب الكابتن ڤير بمس في عقله فجأة؛ وإن الأمر لا يعدو انفعالًا عابرًا سببته الفاجعة الغريبة وغير العادية التي وقعت أمام ناظره؟ وفكر الطبيب فيما قاله القبطان عن استدعاء محكمة عسكرية مؤقتة فخطر له أن هذا الأمر خال من الكياسة. إن لم يكن أزيد من ذلك، وبدا له أن ما ينبغي عمله هو أن يوضع بيلي بد تحت التحفظ بالطريقة التي يمليها العرف البحري وأن يرجأ اتخاذ أي تدبير آخر في هذه القضية الغريبة إلى أن يحين الوقت الذي تعود فيه السفينة إلى الانضمام للأسطول ثم يرفع الأمر لأمير البحر يتصرف فيه، واستعاد الطبيب في ذهنه حالة الاضطراب غير المألوفة التي كان عليها الكابتن ڤير وصيحات الانفعال المبتورة التي كانت تصدر عنه على خلاف المألوف فيه عندما يكون في حالته الطبيعية، ومضى به التفكير يسائل نفسه: أترى هو مخبول؟ وعلى فرض أنه كذلك فما هو الدليل عليه؟ وماذا يمكن أن يصنع؟ إنه في موقف محير وليس أعصب من موقف يرى فيه ضابط مرؤوس نفسه تحت إمرة قبطان يشك هو نفسه أنه وإن لم يكن مجنونًا

بحق إلا أن عقله به مس ولا ريب، والموقف لا يعدو أمرين: فإما أن يناقشه في الأمر الذي أصدره إليه، وتلك ولا شك وقاحة من جانبه. وإما أن يقاوم هذا الأمر، وفي هذه الحالة يكون تصرفه ثورة وعصيانًا.

وبعد هذا التفكير لم يجد بدًّا أن يفعل ما أمر به إطاعة للكابتن ڤير، ومن ثم نقل ما حدث إلى الملازمين وإلى رئيس البحارة ولم يشر بشيء ما إلى حالة القبطان، وقد شاركه الضباط جميعًا في دهشته وقلقه، وكان رأيهم من رأيه من أن هذه القضية يجب أن ترفع إلى أمير البحر.

U U U

... ترى أينا يستطيع وهو ينظر إلى قوس قزح أن يرسم الخط الفاصل بين نهاية اللون البنفسجي وبداية اللون البرتقالي؟ لا ريب أننا جميعًا نرى بوضوح الفروق بين الألوان ولكن أين بالضبط يدخل اللون الأول ويمتزج باللون الثاني؟ كذلك هو الأمر في التفريق بين الجنون والعقل. صحيح أنه في الحالات الظاهرة لا يحتاج الإنسان إلى هذا التفريق، بيد أن الحاجة إلى التفريق تبرز في الحالات المشكوك فيها، في الحالات التي تكون فيها مظاهر الجنون على درجات متفاوتة وأقل ظهورًا، وقليل هم الذين يستطيعون أن يدركوا هذه الفروق وأن يضعوا حدًّا فاصلًا بين حالات الجنون وحالات العقل وإن يكن الأطباء يستطيعون ذلك مقابل أجر يتقاضونه، والحق أنه ما من علة أو داء مسمى إلا ويستطيع بعض

الناس أن يعالجوه لقاء أجر.

ومهما يكن من شيء فإن تقرير ما إذا كان كابتن ڤير- كما قرر الطبيب مهنيًّا وابتدائيًّا- ضحية نوبة خبال مفاجئة، مرده إلى القارئ نفسه في ضوء حوادث هذه القصة.

ولا شك أن هذا الحادث المؤسف الذي قصصناه عليك ما كان ليقع في ظروف أسوأ مما وقع فيها، فالحقيقة التي لا مرية فيها أنه وقع في أعقاب الثورات التي ثارت في البحرية البريطانية وأخمدت، وقع في وقت عصيب جدًا بالنسبة لرؤساء البحرية، في وقت جاء مباشرة بعد هذه المحن، وقت يتطلب من كل قائد بحري صفتين كلًّا منهما قائمة بذاتها: هما الحسم السريع والشدة المتناهية. يضاف إلى ذلك أن هذه القضية بالذات كان لها ظروف محرجة.

وفي التطور السريع الذي تطورته الحوادث التي سبقت وصاحبت الكارثة التي وقعت على ظهر السفينة وفي ضوء القانون العسكري الذي كانت المحاكمة ستستند إليه أول الأمر تطورت البراءة والإجرام اللذان كانا يمثلهما كلاجارت وبد، وحل أحدهما مكان الآخر.

والواقع أنه من وجهة نظر القانون كان الضحية الظاهرة لهذه المأساة هو ذلك الذي سعى إلى الإيقاع بشخص لا غبار عليه، على حين أن فعل الآخر الذي لا جدال فيه يشكل من وجهة النظر البحرية جريمة من أبشع الجرائم العسكرية، وأعظم من هذا خطرًا أن الحق والخطأ الأساسيين اللذين تنطوي عليهما هذه القضية مهما بلغا من الوضوح فإنهما بالغا السوء بالنسبة لمسئولية قائد بحري يدين بالولاء للنظام والقانون العسكريين من

ناحية أنه ليس مخولًا أن يفصل في الأمر على هذا الأساس الابتدائي.

فلا عجب، والحال ما ذكرنا، أن نرى قبطان السفينة على الرغم من أنه معروف بحزم البدار يشعر في دخيلة نفسه أن الأمر يستدعي إلى جانب الحزن التدبر والحيطة، ومن ثم رأى أن الأحوط في ظل الظروف القائمة أن يحيط المسألة بالكتمان ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، إلى أن يتلمس طريقه ويحزم أمره في كل جزئية من جزئيات المسألة، بل وحتى يضع تدبيره الأخير موضع التنفيذ، وقد يكون أخطأ في هذا أو أصاب ولكن الشيء المؤكد أنه على أثر الحادث تردد في أكثر من حجرة وعنبر نقد لتصرفه من بعض الضباط في أحاديثهم الخاصة، وهي حقيقة عزاها أصدقاؤه وعلى الأخص ابن عمه جاك دنتن في حماسة إلى حسد الزملاء في المهنة لمنصب استاري ڤير. على أن هناك أساسًا يمكن تخيله لهذه التعليقات الحاقدة الظالمة فاحتفاظه بسرية الحادثة وحبس كل المعلومات عنها وقتًا طويلًا في المكان الذي وقعت فيه جريمة القتل الإنساني- وهي قمرة القبطان- وراء هذه التفاصيل تختفي بعض الشبه وراء السياسة التي كانت تتبع في المآسي التي كانت ترتكب في القصر والتي حدثت أكثر من مرة في العاصمة التي أنشأها بطرس المتبربر.

والأمر في المسألة لا يعدو في الحقيقة القول بأنه كان من الأفضل أن يؤجل قبطان السفينة اتخاذ أي تدبير في المسألة مهما يكن اللهم إلا التحفظ على حارس السارية وإبقاؤه سجينًا إلى أن تعود السفينة إلى اللحاق بالأسطول، وعندئذ يرفع الأمر إلى أمير البحر ليقضي فيه ما هو قاض. غير أن الضابط العسكري الحقيقي يشبه في ناحية معينة القسيس

الحقيقي، فالقسيس ليس أكثر إنكارًا لذاته حين يستمسك بالأيمان التي أخذ نفسه بها من الولاء والطاعة للقوانين الكنسية، نعم ليس أكثر إنكارًا لذاته من الضابط حين يستمسك بأيمانه التي أقسم بها على الولاء والطاعة لواجبه العسكري.

وقد تملك الكابتن ڤير شعور بأنه ما لم تتخذ تدابير سريعة عاجلة في هذه المسألة فإن قصة حارس السارية حالما تنتشر بين صفوف البحارة على ظهر السفينة سيكون من شأن انتشارها أن يذكي الجمرات الخابية ويحرك الفتنة النائمة التي بقيت آثارها في صدور البحارة بعد فتنة «نور»، ومن ثم غلب على القبطان ڤير شعور المبادرة بالحسم وغطى عنده على أي اعتبار آخر، وعلى الرغم من أن كابتن ڤير كان نظاميًا متزمتًا إلا أنه لم يكن محبًا للسلطان من أجل السلطان فحسب؛ ومن ثم كان أبعد ما يكون عن اهتبال الفرص ليحتكر لنفسه أعباء المسئولية الأدبية، فلم يكن ليتردد على الأقل في أن يرجع في مسألة ما إلى رئيسه أو أن يشارك معه في الرأي نظراءه أو حتى مرءوسيه. وفي ظل هذا النهج من التفكير كان السرور يخامره لأن إحالة القضية إلى محكمة عسكرية مؤقتة من ضباطه لا تخالف العرف البحري، وقد احتفظ لنفسه بعد ذلك- باعتباره الرجل المسئول الذي تقع على عاتقه المسئولية الأخيرة- بحق مراجعة حكم المحكمة وحق التدخل بصفة رسمية أو غير رسمية إذا احتاج الأمر إلى هذا. وتنفيذًا لهذا دعيت محكمة عسكرية مؤقتة للانعقاد واختار هو أعضاءها من الملازم الأول للسفينة وقائد البحارة وضابط الإبحار.

وهو في ضمه كبير البحارة إلى الملازمين البحريين في مسألة تمس

بحارًا قد خرج عن العرف العام، ولكن دفعه إلى ذلك اعتقاده أن هذا الجندي شخص حكيم مفكر كفء إلى حد ما في علاج هذه القضية الصعبة التي لم يسبق لها مثيل في تجاربه السابقة، ومهما يكن من شيء فقد كانت تساور القبطان بعض المخاوف الكامنة من هذه الناحية، ذلك أن كبير البحارة كان من جهة طيب القلب إلى حد بعيد محبًّا للطعام ذواقة نئومًا يميل إلى البدانة، وهو من جهة أخرى وإن يكن رجلًا يعتمد عليه في المعارك فقد تكشف التجربة عن أنه لا يعتمد عليه كل الاعتماد في مشكلة أدبية كالمشكلة التي تنطوي عليها هذه المأساة. أما الأمر عنده بالنسبة للملازمين البحريين فهو أنهما وإن كانا من ذوي الطبائع الأمينة والشهامة التي أثبتتها التجربة في المناسبات، إلا أن ذكاءهما كان في معظمه محصورًا في المسائل الخاصة بالشئون البحرية ومطالب الحرب التي تقتضيها وظيفتاهما.

وقد انعقدت المحكمة العسكرية في نفس القمرة التي وقع فيها الحادث الأسيف، وهي قمرة القبطان التي تضم كل المساحة التي تقع تحت سطح السفينة الخلفي وتنتهي القمرة من الخلف ومن الجانبين بثلاث غرف صغيرة استعملت إحداها مؤقتًا سجنًا، واستعملت الأخرى مدفنًا، أما الثالثة فانعقدت فيها المحكمة وكانت صغيرة نوعًا ما تنتهي من الأمام بردهة مكشوفة مستطيلة في طرفيها فتحتان ذاتا غطائين من السهل إزالتهما واستعمال الفتحتين لإطلاق المدافع الصغيرة.

وسرعان ما أعد كل شيء واتخذت الأمور أهبتها فاستدعى بيلي بد للمثول أمام المحكمة وتقدم كابتن ڤير بالضرورة للمحكمة باعتباره

الشاهد الوحيد في القضية، وبمثوله أمام المحكمة كشاهد تخلى مؤقتًا عن مركزه كقائد للسفينة وإن تمسك به كل التمسك في بعض المسائل التي تبدو تافهة مثل إصراره على أن يشهد من الجانب المكشوف للسفينة مما أدى إلى أن تجلس المحكمة في الجانب المحجوب من السفينة. وقد قص القبطان باختصار مركز على المحكمة كل ما أدى إلى وقوع الكارثة، ولم يحذف شيئًا مما وجهه كلاجارت من اتهامات لبيلي، ثم أوضح للمحكمة الحالة التي كان عليها السجين حين تلقى هذه الاتهامات.

وبعد هذه الشهادة ألقى الضباط الثلاثة نظرة لا تخلو من الدهشة على بيلي بد باعتباره في نظرهم آخر رجل يمكن أن يشكوا في اتجاهه إلى التآمر لإحداث ثورة على ظهر السفينة- كما زعم كلاجارت- أو باعتباره آخر رجل يمكن أن يرتكب هذا الفعل الذي قام به ولم ينكره. وبدأ الملازم الأول يوجه الأسئلة القضائية باعتبار أولويته في مجلس القضاء، وتحول بوجهه نحو السجين قائلًا:

- لقد تحدث كابتن ڤير وروى للمحكمة كل ما رأى وسمع، فهل الأمر كما رواه أولًا؟ وفي الإجابة عن هذا السؤال خرجت من فم بد مقاطع لم يحل بينها وبين الخروج انحباس اللسان كما كان متوقعًا وكانت هذه المقاطع كما يلي: «إن كابتن ڤير يقول الحق، والأمر هو كما رواه كابتن ڤير تمامًا وليس كما رواه ملاحظ السفينة. لقد أكلت عيش الملك فلا بد لي أن أضرب بسيفه وأن أكون مواليًا له» وقال الشاهد وقد بدت في صوته عاطفة مكبوتة لا يمكن أن تخفى: «إني أصدقك فيما تقول أيها الرجل» فأجاب بيلي بشيء من التلعثم: «فليباركك الله يا سيدي من أجل هذا».

ثم انحبس صوته ولكنه سرعان ما استعاد ضبط نفسه حين وجه إليه سؤال آخر أجاب عنه بنفس الصعوبة العاطفية في النطق قائلًا: «لم يكن بيننا أي حقد أو خصومة- أنا لم أحمل أبدًا أي حقد لملاحظ السفينة وإني لشديد الأسف لموته ولم أكن أقصد قتله بحال ولو أني استطعت أن أستخدم لساني في الرد عليه لما اتجهت لطعنه إطلاقًا، لقد كذب عليَّ في وجهي وفي حضور قبطاني، كان عليَّ أن أقول شيئًا فكان كل ما أمكن أن أقوله ضربة وجهتها إليه كان الله في عوني».

وبهذا الأسلوب الواضح الصريح الجازم المعبر عن صراحة المتحدث اتضح للمحكمة ما أثبت لها كل ما انطوت عليه الكلمات التي أثارت حيرتها من قبل حين نطق بها شاهد المأساة وصدرت عنه فور سماعه نفي بيلي بكل عواطفه وجود أي نية لإحداث أي ثورة على ظهر السفينة- هذه الكلمات هي التي علق بها الكابتن ڤير على نفي بيلي حين قال: «إني أصدقك أيها الرجل».

وقد سئل بعد ذلك عما إذا كان قد عرف أو شك في أي شيء يشتم منه أن هناك متاعب على وشك الوقوع (وكان المعنى المقصود هو الثورة وإن لم يستعمل هذا اللفظ بالصراحة) في أي قسم من أقسام السفينة.

وقد تباطأ بيلي في الإجابة عن هذا السؤال، ولكن المحكمة عزت هذا التردد بطبيعة الحال إلى الاضطراب الصوتي الذي منعه من الإجابة عن الأسئلة السابقة، ولكن الأمر في هذه المرة في أساسه لم يكن كذلك، بل كان شيئًا آخر؛ إذ سرعان ما سمع بيلي هذا السؤال حتى عاد بفكره القهقرى إلى الحديث الذي دار بينه وبين حارس المؤخرة في شرفة

السفينة العليا، ولكن شعورًا داخليًا بالاشمئزاز من أن يلعب دورًا يقارب دور المخبر عن أحد زملائه في السفينة كذلك الشعور الخاطئ الذي راوده بدافع من الشرف البدائي وحال بينه وبين الإبلاغ عن هذه المحادثة في إبانها، إذ كان الموقف يوجب عليه كبحار عسكري موال أن يسارع إلى الإبلاغ، وأن عدم الإبلاغ يعرضه إذا وجهت إليه مثل هذه التهمة وقام عليها الدليل لأقصى العقوبات، هذا الشعور يصاحبه شعور آخر بأن الأمر في الواقع لم يكن وراءه شيء مخيف قد لازمه حتى هذه اللحظة، ومن ثم فقد جاء رده عن هذا السؤال بالنفي. وتكلم رئيس البحارة لأول مرة بشيء من الحزم يشوبه القلق فقال: بقي سؤال آخر:

– «لقد قلت لنا إن ما عزاه إليك ملاحظ السفينة كان كذبًا فهل لك أن تفسر لنا لماذا يكذب عليك هذا الكذب الحاقد ما دمت قد قررت أنه لم يكن بينك وبينه ما يثير الحقد؟».

وبهذا السؤال الذي مس عن غير عمد الجانب الروحي البعيد كل البعد عن أن تدركه أفكار بيلي لم يجد ما يقوله، وبدا عليه شيء من الارتباك والحيرة يمكن أن يعزوه بعض المراقبين كما لا بد أن يتصور في مثل هذه الظروف إلى أنه دليل لا إرادي عن جريمة يخفيها في نفسه، ومع ذلك فقد جاهد بيلي بطريقة أو بأخرى ليجيب عن هذا السؤال، ولكن كل جهوده في هذا المجال ذهبت سدى. على أنه في الوقت نفسه اتجه في نظرة ضراعة إلى القبطان ڤير بحسبانه منجده وصديقه، وعندئذ هبّ القبطان ڤير الذي ظل جالسًا فترة من الوقت، هبّ واقفًا ووجه الحديث إلى المستجوب قائلًا: «إن السؤال الذي وجهته إليه سؤال طبيعي وفي

موضعه ولكن كيف يستطيع أن يجيب عنه إجابة صحيحة، بل كيف يستطيع أي إنسان أن يجيب عنه إجابة صحيحة اللهم إلا أن يكون هذا الراقد على الأرض في هذه الحجرة الجانبية- وأشار بيده إلى الغرفة التي يثوى فيها الجسد- ولكن هذا الراقد هناك لن يهب ويستجيب لاستدعائنا، ومن ثم فإن النقطة التي أثرتها كما يبدو لي لا يمكن الإجابة عنها، وبصرف النظر عن الواقع الذي حدا بملاحظ السفينة إلى أن يتصرف هذا التصرف، وبصرف النظر عن الأسباب التي استثارت هذه الضربة فإن المحكمة العسكرية ينبغي بالضرورة في مثل هذه القضية أن تحصر اهتمامها في النتائج التي أسفرت عنها هذه الضربة، كما ينبغي أن تأخذ هذه النتائج وتقومها على ضوء الفعل الذي قام به الضارب». هذا القول لم يكن من المحتمل بحال أن يدرك مغزاه الكامل بيلي، ومع ذلك فقد حمل هذا القول على أن يتجه بنظرة ملؤها الاستفهام نحو المتحدث؛ نظرة لا تختلف في تعبيرها الصامت عن نظرة الكلب الأصيل إلى سيده يستشف من وجهه إيضاحًا عن حركة سابقة بدت غامضة على ذكاء الكلاب؛ ولم يخل هذا القول في الوقت نفسه من تأثير ملموس على الضباط الثلاثة أعضاء المحاكمة وعلى الأخص رئيس البحارة، فقد بدا لهم أن هذا القول يخفي وراءه معنى سابقًا لأوانه يتضمن سبق المتكلم إلى الحكم في الموضوع مما زاد في حيرتهم العقلية التي كانت ظاهرة الوضوح من قبل.

وتكلم رئيس البحارة مرة أخرى ولكن في لهجة توحي بالشك مخاطبًا زملاءه في المحكمة والكابتن ڤير:

- إن أحدًا لا يشهد هذه المحاكمة، وأعني أن لا أحد من بحارة

السفينة الذين قد يستطيعون أن يلقوا ضوءًا ولو جانبيًا- إن يكن هناك ضوء لدى أحد منهم- على ما بقي غامضًا من جوانب هذه المسألة.

فقال الكابتن ڤير:

- هذا تفكير سليم وأنا أقدر نزعتك. إن هناك لغزًا في هذه المسألة ولكن إذا استخدمنا عبارات الكتاب المقدس فهو لغز الشر والمعصية، والأمر فيه يحتاج إلى بحث علماء الدين النفسيين، وماذا تستطيع المحكمة العسكرية أن تفعل في هذا وليس بي حاجة أن أضيف أن أي تحقيق مجد في هذه المسألة يجلي الأمر لنا قد حال بيننا وبينه انحباس لسان هذا الراقد على مقربة إلى الأبد- ومرة أخرى أشار إلى الحجرة التي يرقد فيها الرجل المسجى- ومن ثم فليس أمامنا من شيء نبحثه إلا ما فعله هذا السجين.

ونتيجة لهذا وعلى الأخص العبارة الختامية التي قرر بها القبطان ما سبق أن قاله امتنع رئيس البحارة عن أن يقول شيئًا وقد خامره الحزن لأنه أدرك أنه لن يستطيع أن يرد على هذا القول ردًّا حصيفًا. وتكلم الملازم أول الذي لم يتخذ لنفسه منذ البداية مكانة الأولوية في المحكمة ولكنه بوحي من نظرة صدرت له من كابتن ڤير، نظرة أكثر وقعًا من الكلمات، استعاد مكانه في الصدارة واتجه نحو السجين وقال له:

- بد! بد! إذا كان عندك شيء آخر تضيفه للدفاع عن نفسك فقله على الفور.

وعندما سمع البحار الشاب هذا القول اتجه في نظرة خاطفة نحو الكابتن ڤير كأنما يستوحيه شيئًا بهذه النظرة، شيئًا يؤكد ما أوحت به

غريزته من أن الصمت هو خير سبيل الآن، ومن ثم أجاب الملازم:

- لقد قلت كل شيء يا سيدي.

وعلى أثر ذلك أمر البحار- وهو نفس الشخص الذي كان يحرس حجرة القبطان من الخارج عندما دخل إليها حارس السارية العليا يتبعه ملاحظ السفينة- أمر هذا البحار الذي كان يقف طوال المحاكمة إلى جانب بد أن يأخذه إلى الحجرة الأخرى التي خصصت من قبل للسجين وحارسه، وعندما اختفى الاثنان عن النظر أحس الضباط الثلاثة أعضاء المحكمة أنهم قد تحرروا جزئيًا من بعض القلق ا لداخلي الذي كان يصاحبهم لمجرد وجود بيلي بينهم، ومن ثم تحركوا جميعًا في مقاعدهم في وقت واحد وتبادلوا فيما بينهم نظرات تدل على الاضطراب والحيرة في اتخاذ قرار حاسم، ولكنهم كانوا يشعرون أيضًا أن من واجبهم أن يتخذوا قرارًا في المسألة بلا تسويف. أما الكابتن ڤير فقد وقف في الوقت نفسه موليًا ظهره لا شعوريًا نحوهم ومستغرقًا في إحدى نوبات الشرود التي تعرض له ومحدقًا النظر من إحدى الطاقات إلى سير الريح على صفحة الماء فوق البحر المعتم. واستمر الصمت يخيم على المحكمة وإن انقطع حبله لحظات كانت تتشاور المحكمة فيها مشاورات قصيرة بصوت خفيض، ولكن تبدو في نبراته الجدية، وكانت هذه الهمسات تقويه وتشجعه، وأخذ القبطان يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، ثم تحول أثناء عودته إلى الصعود فوق سطح السفينة في الجانب المحجوب عن الريح؛ تحول دون أن يدرك أنه في هذه الحركة إنما يرمز إلى عقل صمم على أن يتغلب على الصعاب ولو ضد غرائزه البدائية القوية قوة الريح والبحر،

وفي الحال وقف أمام الثلاثة. وبعد أن تصفح وجوههم سكت هنيهة، لا ليجمع أفكاره استعدادًا للتعبير عنها ولكن في الأغلب ليفكر في أعماق نفسه في أمثل الطرق لنقل هذه الأفكار إلى رجال من ذوي النوايا الطيبة ولكنهم لم يبلغوا بعد مرحلة النضج الثقافي، رجال من الضروري أن يمثل لهم تمثيلًا إيضاحيًا بعض المبادئ المعينة التي تبدو بديهية في نظره. ومن قبيل ذلك أيضًا عدم الصبر على معاناة الكلام فإنه أحد الأسباب التي ربما عاقت بعض ذوي العقول الكبيرة عن مخاطبة الجماهير في اجتماعات عامة.

وعندما تكلم القبطان بدا من ثنايا حديثه ومن الطريقة التي ألقى بها بهذا الحديث أنه متأثر بنوع فريد من الدراسة قد عدل من سلوكه وخفف من صرامة الأثر الذي تحدثه الممارسة العملية لوظيفة كلها عمل وحركة. هذه الدراسة المتفردة إلى جانب أسلوبه في تخير العبارات توحي من آن لآخر بالأسباب التي كان ينبني عليها ما يعزوه إليه بعض رجال البحرية من رجال الصف البحري الخالص من حذلقة وتقعر، وإن يكن هؤلاء القباطنة مع ذلك لا يترددون في التأمين في صراحة على أن بحرية جلالة الملك لم تضم قائدًا بحريًا من درجتهم أكثر كفاية من «ستاري ڤير».

على أن ما قاله ڤير قد استهدف به بلوغ هذه الغاية التي أوضحتها كلماته التالية:

– لقد التزمت حتى الآن حدود الشهادة أو زدت عليها قليلًا، ولكني أراني الآن مضطرًا أن أتخذ موقفًا آخر، موقف المعين لكم في هذه القضية، ذلك أني لاحظت فيكم الآن وحين وقعت الواقعة ترددًا قلقًا لا

أشك فيه، إنه نابع من الصراع بين الواجب العسكري وتأزم الضمير، هذا التأزم الذي حركته روح العطف والإشفاق على هذا الفتى. أما العطف والإشفاق فلا مناص لي من أن أشارككما إياهما؛ إذ كيف السبيل إلى التخلص منهما؟ ولكني مضطر وفي خلدي التزامات كبرى تعلو على كل شيء أن أجاهد نفسي ضد هذا التأثم الذي ينأى بي عن اتخاذ قرار حاسم في الموضوع، ولكن ليس معنى هذا أيها السادة أني أحاول أن أخفي من نفسي أن هذه القضية فريدة في بابها، وأني إن نظرت فيها نظرة تفكير عميق وتأمل وجدت أنها مما ينبغي أن يحال إلى محكمين أخلاقيين من الذين يستطيعون الكشف عن مكنون الضمائر ولكن حين أرد الأمر إلى أنفسنا- ونحن لسنا من رجال الخبرة في شئون النفوس واكتناه السرائر- أجد أن المسألة لا تعدو أن تكون مشكلة عملية ينبغي أن تعالج عمليًا طبقًا لأحكام القانون العسكري.

ولكن نبئوني.. هل تتحرك وساوسكم في الغسق ولا تبرز إلى النور؟ إن يكن الأمر كذلك فاستثيروها وادفعوا بها إلى الظهور لتخرج إلى النور وتعلن عن نفسها، ثم تعالوا خبروني.. هل تشير هواجسكم إلى شيء من هذا الذي سأقول: إننا بصرف النظر عن الظروف المخففة ملزمون بأن نأخذ وفاة ملاحظ السفينة على أنها من فعل السجين، ثم ننظر في هذا الفعل لنقرر أكان يشكل جريمة قتل تكون عقوبتها عندئذ الموت؟ ولكن الأمر بالنسبة للمحاكمات العادية يختلف عن ذلك، إذ لا يقضى على المتهم إلَّا بقصده الواضح الذي ينبئ عنه سبق الإصرار والتعمد، فكيف يجوز لنا أن نحكم بالموت العاجل المخزي على مخلوق بريء أمام الله نشعر نحن

في أعماق نفوسنا ببراءته؟ ترى أهذا الذي قلت يشرح حقيقة ما يدور في خلدكم؟ إني أرى أنكم تومئون إيماءة حزينة تشير إلى موافقتكم. الحق أني في هذا مثلكم تمامًا يخامرني نفس الشعور وأحس بقوته المسيطرة على نفسي، ولا عجب فهذا أمر طبيعي، ولكن أهذه الأزرار الرسمية التي نرتديها تؤيد أن ولاءنا هو للطبيعة؟ كلا يا سادة إن ولاءنا هو للملك.

وفي الحق يا سادة أننا وإن نكن نتحرك في المحيط ونستمد منه وجودنا، وهو بعد الصورة الخالصة التي تمثل الطبيعة التي لم تشبها شائبة منذ بدء الخليقة، إلا أننا كعمال في بحرية جلالة الملك لنا أن نتساءل: هل تقع الواجبات المفروض علينا أداؤها في نطاق يتلاءم مع هذه الطبيعة؟ الواقع يا سادة يخالف هذا كل المخالفة، فنحن حين نتلقى الأوامر التي تخولنا سلطاننا كبحارة نكف في أكثر الحالات المهمة عن ممارسة أعمالنا كعملاء طبيعيين أحرار، فالحرب حين تعلن مثلًا هل ندخل فيها بصفتنا ضباطًا رسميين سبقت استشارتهم في إعلانها؟ كلا يا سادة فنحن نحارب فيها تنفيذًا للأوامر التي تصدر لنا. وإذا حدث أن كانت أحكامنا مؤيدة لإعلان الحرب فهي مجرد مصادفة لا غير، وكذلك الحال في كثير من الأمور الأخرى. والأمر في قضيتنا هذه لا يعدو ذلك، ولنفترض أن هذه المحاكمات الحاضرة قد أسفرت عن إدانة المتهم فهل مرد هذه الإدانة إلى ذواتنا نحن أم مردها في الأغلب إلى القانون العسكري الذي يطبق عن طريقنا ونحن لسنا مسئولين عن إصدار هذا القانون ولا مسئولين عما ينطوي عليه من صرامة وقسوة وكل ما تتطلبه مسئولياتنا التي أقسمنا على الوفاء بها تنحصر في هذا.. إنه مهما تكن القساوة التي يعمل بها هذا

القانون دون رحمة في أية حادثة فإن علينا مع ذلك أن نلتزم به وأن ننفذ أحكامه.

بيد أن الشذوذ الذي تحسونه في هذه القضية يحرك القلوب التي تنطوي عليها صدوركم، وأنا مثلكم في هذا يتحرك قلبي إشفاقًا، ولكن ما ينبغي لنا أن نترك القلوب المشفقة تؤثر في العقول وتخادعها عما ينبغي لها من الاتزان والهدوء، ومثلنا في ذلك مثل القاضي العدل على الأرض الذي يفصل في جناية: هل يمكن أن يسمح لنفسه وهو في موضع الحكم أن يتأثر بدموع امرأة من أقرباء المتهم تسج دموعها أمامه خارج دائرة المحكمة محاولة أن تمس قلبه وتحرك إشفاقه؟! إن القلب- وهو في بعض الأحيان الجانب النسوي في الرجل- يلعب في حالتنا هذه دور المرأة المتشفعة التي لا مناص من استبعادها، ونحن نخلو للحكم مهما يكن في ذلك من قسوة على أنفسنا.

وتوقف القبطان لحظة يدرس فيها وجوههم في إمعان وجد، ثم استأنف حديثه قائلًا:

- «إن شيئًا يبدو في وجوهكم يستحثني أن أقرر أن الأمر ليس مجرد قلوب تتحرك فيكم، ولكنه الضمير أيضًا، الضمير الشخصي في كل منكم ولكن خبروني متى كان رجال في مثل مراكزنا لا يخضعون ضمائرهم الشخصية إلى الضمير العام، الضمير الذي صاغ أحكام هذا القانون الذي نعمل في ظله وحده والذي في ضوء أحكامه وحدها نسير في إجراءاتنا الرسمية.

وما إن بلغ هذا الحد في حديثه حتى تحرك الرجال الثلاثة في مقاعدهم، لا إظهارًا لاقتناعهم، بل إظهارًا لقلقهم من سير هذه المحاجة التي حركت في نفوسهم الصراع الكامن فيها، والذي أثارته هذه المحاكمة تلقائيًا في نفوسهم لأول وهلة، وحين أدرك المتحدث ما حفزهم على هذه الحركة سكت هنيهة ثم فجأة غير لهجته واستأنف حديثه قائلًا:

«لعل مما يعاون على أن نسترد استقرارنا النفسي أن نسترجع حقائق المسألة. إن القضية في واقعها هي أن أحد البحارة في سفينة بحرية أثناء الحرب قد ضرب أحد زملائه من الذين هم أعلى منه رتبة، ضربة أفضت إلى قتله، وبصرف النظر عن آثار هذه الضربة فإن الضربة نفسها تشكل طبقًا لقوانين الحرب جريمة عقوبتها الإعدام. وعلاوة على ذلك...

وعندئذ قاطعه رئيس البحارة في انفعال عاطفي:

- «ولكن يا سيدي قد يكون الأمر كذلك من وجهة نظر، ولكن المقطوع به أن بيلي لم يقصد لا الثورة ولا القتل..».

- «بالتأكيد هو لم يقصد ذلك أيها الرجل الطيب؛ وقد يكون هذا الدافع داعيًا إلى تخفيف العقوبة أمام محكمة أقل تحكمًا وأكثر رحمة من المحكمة العسكرية، وفي الجلسات الأخيرة قد ينتهي الأمر به إلى البراءة ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا هنا؟ إننا نسير في إجراءاتنا طبقًا لأحكام القانون الخاص بإحداث الثورة، وما من طفل يشبه في ملامحه أباه أكثر مما يشبه هذا القانون في روحه والشيء الذي اشتق منه وهو الحرب. إن في خدمة بحرية جلالة الملك وفي هذه السفينة بالذات مواطنين بريطانيين حملوا قسرًا على أن يحاربوا من أجل الملك ضد إرادتهم، بل ضد

ضمائرهم وفي غير مقابل ممكن أن نعرفه، ونحن كزملاء لهم قد يقدر بعضنا مواقفهم، ولكننا كضباط بحريين لا يعنينا من أمرهم شيء، بل ولا يعني أعداءنا من أمرهم شيء، فهم راغبون في أن يقطعوا أوصالهم كما يقطعوا أوصال المتطوعين سواء بسواء وقد يشاركنا بعض المجندين في بحرية الأعداء استفظاعنا لقتل الحكومة الفرنسية ملكها، ولكن هذا لا يغير شيئًا من موقفنا بالنسبة إليهم، بل يستوي الأمر عندنا، فالحرب لا تنظر إلا إلى الوجوه، ولا تعنى إلا بالمظاهر، وقانون الثورة وهو وليد الحرب يتبع أباه. ومن ثم فتوافر ركن القصد أو عدم توافره عند «بد» لا يعني شيئًا بالنسبة إلى هذا القانون، ولكن لا يسعني إزاء الموقف الذي وضعتموني فيه بما أبديتم من مظاهر القلق الذي لا مناص لي من أن أحترمها إلا أن أكرر لكم نفسي: إننا بهذه المطاولة الغريبة لإجراءات المحكمة التي ينبغي أن تكون عاجلة قد يجابهنا العدو فجأة ويترتب على هذا دخولنا في معركة، ولذلك، وحتى لا نؤخذ على غرة، يجب علينا أن نحسم الأمر، والأمر لا يعدو اثنتين لا ثالثة لهما؛ فإما أن ندين المتهم، وإما أن نبرئه».

وعندئذ سأل الملازم الأقل رتبة وهو يتلعثم في عباراته أول الأمر:

– «ألا نستطيع أن ندينه ومع ذلك نخفف الحكم».

– «أيها الملازم إذا كان التخفيف من حقنا القانوني الواضح في ضوء الظروف فيجب أن ندخل في اعتبارنا حين نتجه إلى التخفيف الآثار التي قد تترتب على مثل هذه الرحمة، فالناس (وهو يعني بحارة السفينة) لديهم شعور بالعصبية الوطنية، ومعظمهم معتادون تقاليد البحرية وأعرافها، فكيف يستقبلون مثل هذا التخفيف، وحتى إذا استطعت أن تشرح لهم

دوافعه، الأمر الذي يمنعنا من الركون إليه مركزنا الرسمي، فإنهم- وقد صيغوا على الطاعة والنظام التحكمي- ليس لديهم هذا الضرب من الاستجابة الذكية التي تؤهلهم للفهم والتمييز، والأمر مهما يكن من شيء لا يعدو عند هؤلاء الناس أن فعلة حارس السارية مهما تفننا في صياغة عبارتها في الإعلان إلا أنه جريمة قتل ارتكبت في حادث ثورة بارزة للعيان، وهم يعرفون حق المعرفة العقوبة المترتبة على مثل هذا العمل، والتي ينبغي أن تتلوه مباشرة، فإذا لم تصدر هذه العقوبة فإن لهم أن يتساءلوا: لماذا لم تتبع الفعلة العقوبة الواجبة؟ وفي هذا مجال يديرون فيه الأسباب في رؤوسهم ويجترونها، وأنت تعرف طبيعة البحارة، ألا تراهم يسترجعون الثورة الأخيرة التي حدثت في «نور»؟ أجل إنهم يعرفون حق المعرفة القلق الذي راود النفوس بحق، والذعر الذي أثارته هذه الثورة في أنحاء إنجلترا كلها، ومن ثم سيأخذون قرار الرحمة الذي نصدره على أنه آية من آيات التخاذل والضعف، وقد يظنون أننا نتراجع خشية منهم، وأننا نهابهم، وأننا نخاف من تطبيق أحكام القانون الصارمة والتي ينبغي أن تطبق في مثل هذه الحادثة متأثرين بالموقف الحرج الذي ترتب على الثورة الأولى خشية أن يثير مثل هذا القرار الصارم متاعب جديدة، ترى أي عار يجللنا من مجرد جولان هذه الفروض في أفئدتهم، وترى أي ضربة قاصمة توجه للنظام من وراء هذا الإجراء؟! لا بد أنك قد أدركت أيها الملازم في وضوح بعد ذلك إلى أين أتجه في سرعة وحزم مدفوعًا بما يقتضيه الواجب ويمليه القانون، ولكني أرجوكم أيها الأصدقاء ألا تخطئوا قصدي فأنا أشارككم في الشعور نحو هذا الفتى المنكود الحظ،

ولكن ترى أيدرك خبايا قلوبنا؟ إني أعتقد أنه من أصحاب الطبائع السمحة وأنه لهذا استشعر بما في قلوبنا نحن الذين وضعت على عاتقنا الضرورات العسكرية مثل هذا العبء الثقيل الملزم».

وما إن انتهى من حديثه حتى عبر السطح وعاد إلى مكانه بجوار الكوة المغلقة بالزجاج وجلس في صمت تاركًا المحكمين الثلاثة ليصدروا قرارهم، وقد خيم الصمت أيضًا على المحكمين الثلاثة الذين جلسوا في الجانب الآخر من الغرفة مبلبلة أفكارهم، فواجب الولاء كان واضحًا، وتطبيقه كان ظاهرًا أمام أعينهم وإن كانوا في أعماقهم يخالفون في الرأي بعض النقاط التي وضعها أمامهم القبطان ڤير؛ إذ لم تكن لديهم الموهبة التي تعينهم على ذلك، بل ولا الرغبة في أن يعارضوا شخصًا يشعرون أنه رجل حازم، رجل لا يفوقهم في عقليته فحسب، بل وفي رتبته العسكرية. ومهما يكن من شيء فإن الشيء المؤكد أن أبلغ ما تأثروا به من كلماته وصادف استجابة في نفوسهم هو نداؤه الأخير الذي ختم به حديثه الذي استثار به غرائزهم كضباط بحريين حين ألقى إليهم برأيه فيما يترتب على قرارهم من نتائج عملية تمس النظام، آخذًا في اعتباره الحالة غير المستقرة التي كان عليها الأسطول في ذلك الوقت، وما إذا كان قيام بحّار في سفينة حربية بقتل زميل له أعلى منه رتبة في البحر قتلًا عنيفًا يمكن أن تسمح الظروف بإصدار حكم عليه أقل من الإعدام، ومن ثم مطالبته لهم بإيقاع العقوبة عليه فورًا.

وليس بعيدًا أن هذا القول قد هيأهم لاتجاه أقرب ما يكون للاتجاه الذهني المعذب الذي حدا في سنة ١٨٤٢ بقائد السفينة سومرز التابعة

لبحرية الولايات المتحدة أن يتخذ في حزم قرارًا، طبقًا لأحكام قانون الحرب المزعوم والذي شكلت مواده طبقًا لقانون الثورة الإنجليزي، بإعدام ثلاثة من البحارة باعتبارهم ثوارًا كانوا يتآمرون فيما بينهم للاستيلاء على السفينة وقد نفذ هذا القرار وإن يكن الوقت الذي نفذ فيه كان وقت سلم لا حرب، وفي خلال أيام قليلة من مغادرة السفينة لأرض الوطن، وهو قرار قد أيدته محكمة عسكرية عقدت بعد ذلك على الشاطئ. إنه التاريخ وقد اقتبس في هذه الحادثة دون تعليق. صحيح أن الظروف فوق ظهر تلك السفينة كانت جد مختلفة عن الظروف فوق السفينة أندوميتابل، ولكن البدار الملح في الحالتين لمعالجة الموقف بالحسم كان متماثلًا، سواء أكان هذا الشعور له ما يسوغه أم لا، وقد قال أحد الكتاب الذين لا يكاد يعرفهم أحد: «إن من اليسير على رجل غير محارب بعد أربعين سنة من وقوع المعركة أن يعالج موضوع المعركة بالمنطق ويرسم كيف كان ينبغي أن تدار هذه المعركة، والواقع أن إدارة المعركة شيء آخر غير هذه التكهنات، شيء آخر من الناحية الشخصية ومن ناحية الظروف التي تدار فيها المعركة تحت وابل النار، وتحت سحب الدخان المظلمة والأمر كذلك بالقياس إلى حالات الطوارئ الأخرى التي تنطوي على اعتبارات عملية وأدبية، وحين يحتم الأمر التصرف العاجل السريع. وكلما زاد الضباب واشتد زادت مخاوف السفينة وما تتعرض له من أخطار، مما يحتم الركون إلى السرعة ولو على حساب المخاطرة بالقضاء على بعض الناس. وقلما يتصور اللاعبون الآمنون في الغرفات المسئوليات الجسام التي يضطلع بها حارس القنطرة الذي لا ينام.

وباختصار صدر القرار بإدانة بيلي بد رسميًا وحكم عليه بالشنق، على أن ينفذ ذلك في نوبة الصباح الباكر، إذ كان الوقت حين صدور القرار ليلًا وإلا لكان القرار قد نفذ في الحال كما هي العادة في مثل هذه القضايا، وفي زمن الحرب ينفذ الحكم بالإعدام الذي تصدره المحكمة العسكرية المؤقتة في الميدان أو الأسطول في الحال دون أي إرجاء ودون استئناف لمجرد تصديق القائد عليه ولو بإيماءة من رأسه وهو في الميدان.

وقام القبطان ڤير بنفسه بإبلاغ قرار المحكمة إلى السجين، وتحقيقًا لذلك ذهب بنفسه إلى الحجرة التي كان معتقلًا فيها وأمر البحار الحارس أن يغادر الغرفة مؤقتًا. ولم يدر أحد ما دار من حديث في هذا الاجتماع فيما عدا إبلاغ السجين قرار المحكمة، ولكن إذا نظرنا إلى ما دار في ضوء شخصية الاثنين اللذين اجتمعا فترة قصيرة في هذه الغرفة المقفلة وكل يشارك أساسيًا في الصفات النادرة التي تتميز بها طبيعتنا... صفات غاية في الندرة حقًا بحيث لا يكاد يصدقها ذوو العقول العادية مهما ثقفت هذه العقول على أن هذا لا يمنع من حدس بعض ما دار في هذا الاجتماع.

قد يكون مما يتمشى مع روح القبطان ڤير القول بأنه في هذه المناسبة قد صارح المحكوم عليه بكل ما دار ولم يخف عنه شيئًا، وقد يكون مما يتمشى مع طبيعته أيضًا أن يقال إنه باح له في صراحة بالدور الذي قام به هو نفسه لاستصدار هذا الحكم مع إيضاح الدوافع التي حدت به إلى هذا التصرف، والأمر من جانب بيلي يصدق فيه القول بأنه تلقى هذا الاعتراف بنفس الروح التي دفعت إليه ولا بد أنه قد قدر في شيء من السرور والاعتزاز تقدير القبطان لشجاعته حين أفضى إليه بهذا الأمر

عن ثقة فيه، بل ولم يغب عن ذهنه فيما يتعلق بالحكم نفسه أنه أبلغ إليه بوصفه رجلًا لا يهاب الموت، وقد يكون ما وقع بينهما أكثر من ذلك بكثير، ربما جاشت عواطف القبطان «ڤير» الكامنة في نفسه والتي يغلفها في الظاهر بشيء من الرواقية وعدم المبالاة في بعض الأحيان، فڤير قد بلغ من العمر ما يصح معه أن يكون أبًا لبيلي، ومن ثم فليس عجبًا أن يكون هذا العسكري المخلص لعسكريته المتقشف قد ذاب في عواطفه الجياشة التي هي البقية الباقية من الإنسان البدائي في كيانه المتطور والمتحضر، وأقبل على بيلي في النهاية يحتضنه ويضمه إلى صدره كما فعل إبراهيم بابنه إسحق قبيل عزمه على تقديمه قربانًا إطاعةً للنداء الملح الذي تلقاه.

ومهما يكن من شيء فسرهما المقدس لم يكشفه أي منهما وكل ما تناقلته الأفواه من أمر هذا السر في هذه الدنيا الدوارة قلما استطاع إنسان في أي ظرف من الظروف أن يدعي أنه استقاه من مصدر يمت بسبب إلى هذين الروحين النبيلين اللذين يمثلان خير ما جادت به الطبيعة من نبل وأصالة نفس، ولا أن ينسبه إلى حقيقة ما طوى الرجلان عليه صدريهما؛ ذلك أن الحديث الذي دار بينهما قد أحيط بالكتمان في حينه وقد لزم الناجي منهما الكتمان إلى أن سحب النسيان المقدس وهو نهاية كل عظمة ونبل على الأرض ذيله على الموضوع كله فانطوت الصفحتان وانطوى معهما السر إلى الأبد..

وكان أول من قابل القبطان ڤير فور مغادرته قمرة السجين هو الملازم الأول، وكان ما شاهده هذا الضابط على ملامح وجهه في هذه اللحظة تعبيرًا ينم عن ألم الرجل القوي، وهو على حد تعبير الضابط الذي جاوز

الخمسين من عمره تعبير مثير يكشف عما يعتمل في نفسه من مضاضة فقد بدا بوضوح أن المحكوم عليه يعاني آلامًا أقل من الذي صيره إلى هذا المصير، وآكد دليل على ذلك تلك الصيحة التي ندت عنه في المشهد الذي سنرويه بعد ذلك.

U U U

هذه السلسلة من الحوادث التي توالت في سرعة بعضها في إثر بعض خلال فترة قصيرة، من المؤكد أن روايتها الوافية قد تأخذ وقتًا أطول مما وقعت فيه وعلى الأخص إذا كان الشرح والتعليق على هذه الحادثة أو تلك يقتضيهما المقام لحسن فهم وإدراك ما وقع من حوادث، فالأمر ما بين دخول هذا الذي لم يغادر القمرة إلا ميتًا وذلك الذي حين تركها، تركها مقضيًّا عليه بالإعدام، وبين الحديث الخاص الذي دار في قمرة السجين المغلقة الذي ذكرناه آنفًا لم يستغرق أكثر من ساعة ونصف ساعة، ومع ذلك فقد كانت هذه الفترة كافية لأن تثير التكهنات بين عدد غير قليل من بحارة السفينة تساءلوا فيها عما عساه يكون السبب الذي احتجز في قمرة القبطان كلا من ملاحظ السفينة والبحار فقد خرجت إشاعة أن كليهما قد شوهدا يدخلان قمرة القبطان وأن أحدًا منهما لم ير خارجًا منها، وطارت هذه الإشاعة إلى عنابر نوم البحارة فوق سطح المدافع بل وإلى أعلى السفينة. والحق أن رجال البحرية في سفينة حربية كبيرة كهذه يشبهون في ناحية من نواحيهم سكان القرى الذين يلاحظون ملاحظة دقيقة كل

حركة أو نأمة تجري في الخارج، ومن ثم فإنه عندما صدر الأمر بدعوة كل بحارة السفينة للاجتماع خلال نوبة المساء الحرة الثانية وفي جو لا ينذر بالعواصف، تلقى البحارة الدعوة مهيئين لها إلى حد ما، ومتهيئين لسماع إعلان غير عادي بنبأ يتصل بهذا الغياب المستمر الذي غابه الرجلان عن أماكنهما العادية.

وقد كان البحر في هذه الآونة معتدلًا، والقمر قد بدأ يشرق وهو في تمه، وقد أرسل أشعته الفضية على سطح السارية الأبيض فأحاله فضيًّا لا تشوبه شائبة من ظلال ثابتة أو متحركة، واصطف على جانبي سطح السفينة العلوي البحارة المنوط بهم الحراسة، ووقف القبطان ڤير في مكانه وحوله ضباط السفينة الرسميون وخاطب البحارة ولم يبد عليه وهو يخاطب هؤلاء البحارة أي مظهر أزيد أو أقل مما ينبغي لمركزه السامي فوق ظهر سفينته. وفي عبارات واضحة ومختصرة روى القبطان للبحارة ما وقع في قمرته وأبلغهم أن ملاحظ السفينة قد مات وأن الذي قتله قد حوكم أمام محكمة عسكرية مؤقتة؛ وأن المحكمة العسكرية قد قضت عليه بالموت، وأن تنفيذ حكم الإعدام سيتم في نوبة الصباح الباكر. ولم يجر على لسان القبطان فيما قال كلمة الثورة، وقد امتنع أيضًا أثناء حديثه عن اتخاذ هذه المناسبة فرصة للوعظ والنصح بالتزام النظام وربما كان ما حداه إلى هذا اعتقاده أنه في ظل هذه الظروف القائمة في البحرية فإن ما يترتب على الخروج على النظام لا حاجة للتحدث عنه، بل هو واضح يتحدث عن نفسه.

وقد أنصت البحارة الواقفون إلى ما أعلن عليهم القبطان في صمت،

خرسًا لا ينطقون كأنهم جماعة من المؤمنين جلسوا يصغون وهم على أحر من الجمر إلى قس يتلو عليهم مبادئ كالفن.

ومهما يكن من شيء فقد سرت همهمة مضطربة في صفوف البحارة عندما اختتم القبطان حديثه، ثم أخذت تتزايد وفي الحال وبإشارة من القبطان طغى على هذه الهمهمات وأخمدها صفير البروجية المدوي معلنًا بدء نوبة الحراسة وإعطاء الأمر بالتفرق في أنحاء السفينة. واستعدادًا لدفن جثة كلاجارت سلمت الجثة لبعض زملائه من صف الضباط.

وحتى لا نعوق تتابع القصة بأمور جانبية يكفي في هذا المقام أن نضيف أن جثة ملاحظ السفينة قد ألقيت في ساعة مناسبة في البحر بكل ما تستحق رتبته العسكرية من مظاهر التكريم الجنائزي المناسب.

وفي هذه العملية، كما في كل عملية عامة أخرى تطلبتها ظروف هذه المأساة، التزم ما يقضي به العرف البحري التزامًا دقيقًا، ولم يكن من المستطاع الانحراف البتة عن هذا العرف لا بالنسبة لكلاجارت ولا بالنسبة لبيلي بد دون إثارة بعض التكهنات غير المرغوب فيها في أوساط السفينة بين البحارة وعلى الأخص بين بحارة سفينة حربية رجالها دون جميع الرجال من المعروفين بتمسكهم المتزمت بالعرف والتقاليد. ولهذه الأسباب نفسها انقطعت كل صلة بين القبطان ڤير وبين المحكوم عليه بعد المحادثة السرية التي جرت بينهما وأشرنا إليها. وقد أخضع السجين لما يقضي به النظام العادي الذي يسبق تنفيذ الحكم فنقل تحت الحراسة من جناح القبطان دون اتخاذ أية تدابير غير عادية، أو في القليل دون اتخاذ تدابير ظاهرة، وذلك حتى لا يدع قدر الإمكان للتكهنات سبيلًا

للسيطرة على نفوس البحارة من أن ضباطهم يتوقعون من جانبهم شيئًا خارقًا للنظام، وهذه هي القاعدة المرعية دائمًا في السفن الحربية، وإن لم يصرح بها. والواقع أن الضباط كلما راودهم أي توقع لخطر ما حقيقي أخفوا هذا القلق في نفوسهم وإن اتخذوا زيادة في الأهبة والاستعداد الضروريين، وفي ظروف الحادثة الحاضرة أعطيت للحارس الذي يناط به مراقبة السجين أوامر مشددة بألا يسمح لأحد بالاتصال به سوى القسيس، واتخذت تدابير عادية مشددة لضمان تنفيذ ذلك.

وفي معظم السفن ذات الطراز القديم يكون سطح السفينة المعروف بسطح المدافع العلوي مغطى بسطح السارية وهذا الأخير يكون في معظم الحالات مكشوفًا للجو وإن لم يخل من الأسلحة. وهذا السطح على العموم يخلو في كل ساعات النهار من أسرة البحارة، هذه الأسرة التي تتأرجح على سطح المدافع السفلي وعنابر النوم، وهذا الأخير ليس عنبرًا للنوم فحسب، بل يتخذ مكانًا يضع فيه البحارة حقائبهم وعلى جانبيه صواوين كبيرة ثابتة وأخرى متحركة تخزن فيها المؤن وأواني الطعام.

وعلى الجانب الأيمن من سطح المدافع كان يرى بيلي بد تحت الحراسة راقدًا على بطنه مكبلًا بالحديد في أحد الخلجان التي تتكون نتيجة للمسافات المنتظمة التي تترك بين المدافع التي تحيط بها البطاريات من كل جانب، وكانت هذه القطع الحربية ذات الوزن الثقيل في ذلك العصر محملة على قواعد خشبية متحركة مزودة «بطاقم» من الحبال الغليظة من الوسط والجوانب لتحريكها. وكانت المدافع والعربات مع أطقمها موضوعة في فجوات عالية وكانت كل هذه الأشياء مدهونة

كالمعتاد باللون الأسود وكانت الحبال الغليظة والأربطة الثقيلة كلها مطلية بالقار فكان هذا السواد المخيم على المكان أشبه بالجو الجنائزي. وعلى خلاف هذا الجو الجنائزي الذي كان يشمل المكان كله، كان لباس البحار الخارجي الراقد على بطنه عبارة عن قميص أبيض وسروال أبيض كل منهما ملوث إلى حد ما بالطين، وكان هذا اللباس يلمع في ضوء الخليج الخافت في غير وضوح كأنه قطعة من الثلج حال لونها عالقة بالفوهة السوداء لكهف بربوة عالية في أوائل أبريل.

وفي الواقع كان هذا الزي الأبيض الذي يرتديه البحار بمثابة الكفن ومن فوق رأسه كان يتأرجح مصباحان من مصابيح المراكب متدليان من عرقين غليظين من الخشب في سقف السطح العلوي ولكنهما على الرغم من ذلك لم يكونا ليبعثا في نفسه أي نور. وكان بصيص النور الذي يشعه هذان المصباحان يغذيه الزيت الذي يقدمه متعهدو الحروب (الذين تعتبر مكاسبهم سواء أكانت من طريق شريف أم غير شريف في كل مكان هي الباكورة التي تجنى سلفًا من حصاد الموت) وكانت ومضات النور الأصفر المعتم المنبعثة من هذين المصباحين تلوث أشعة القمر الخافتة التي كانت تحاول بلا جدوى أن تنفذ في خيوط متقطعة من خلال الفجوات التي تطل منها المدافع على البحر، وكانت هناك عدا هذين المصباحين مصابيح أخرى تُدلى لتضيء في فترات الجوانب المظلمة من السفينة التي تشبه غرف الاعتراف أو الهياكل الجانبية في إحدى الكاتدرائيات، تلك الجوانب التي تتفرع من الممرات الطويلة المسقوفة والتي تقع عادة بين البطاريات.

كان هذا هو حال السطح الذي يرقد فوقه البحار الوسيم. ومن خلال اللون الوردي الذي كانت تصطبغ به خدوده لم يبد أي أثر لصفرة أو ذبول، والحق أن زوال هذه الحمرة من وجهه كان يحتاج إلى أيام وأيام في عزلة عن الريح والشمس... والشيء الوحيد الذي قد يستوقف النظر في بحارنا الوسيم أن عظمة الخد عند نهايتها قد بدأت تبرز بروزًا خفيفًا من تحت جلده الملون الدافئ. والقلوب الحساسة التي تطوي جوانحها على آلامها تنهش بعض المحن التي تتعرض لها أنسجتها في خفاء كما تأكل النار الخفية في مخازن السفينة القطن داخل «بالاته».

وقد كانت آلام بيلي بد وهو راقد بين المدفعين كأنما أمسكت به فجأة مخالب القدر منبعثة في أساسها من إحساس قلب فتى كريم تواجهه لأول مرة نزعات الشيطان الشريرة المتجسدة في بعض الناس والغالبة على أفعالهم، ولكن أزمة هذه الآلام كانت قد زالت في هذه اللحظة تمامًا، فهي- والحق يقال- لم تعش في نفسه بعد الحديث الفردي الذي دار بينه وبين القبطان ڤير الذي انطوى على ما التأمت به جراح نفسه. وقد كان بيلي في رقدته هذه بين المدفعين لا يبدي حراكًا كأنه استغرق في غيبوبة وقد استحالت قسمات المراهقة التي كان يتسم بها وجهه فيما سبق إلى شيء أقرب ما يكون إلى سحنة الطفل الراقد في مهده في سكون الليل في حجرته الدافئة ولهب المدفأة المتقدة ينعكس على صفحة خده بين الحين والحين مكونًا ظلالًا كالخال تذهب وتجيء في سكون مع وقدات اللهب.. كذلك كان بيلي في غيبوبته يومض وجهه بإشراقات سعيدة بين الفينة والفينة كأنها انعكاسات ذكريات عابرة أو أحلام سعيدة ثم لا تلبث

هذه الإشعاعات التي يفيض بها وجهه أن تختفي لتعود من جديد.

وفي هذه اللحظة جاء القس ليراه ولما وجده على هذه الحال وأدرك أنه لا يشعر بوجوده تفرس في وجهه فترة ثم انتحى جانبًا وانسحب تاركًا إياه في هذه اللحظات؛ فقد أحس أنه وهو رسول السيد المسيح- وإن كان يتقاضى أجره من إله الحرب «مارس»- ليس لديه من السلوى والعزاء ما يستطيع أن يمنحه لهذا الفتى مما قد ينزل سكينة على نفسه تفوق ما شاهده عليه من سكينة، ولكنه مع ذلك عاد إليه في الساعات الأخيرة من الليل ليجد السجين قد تيقظ لما حوله وأحس بمقدمه، وقد تلقاه السجين مرحبًا بدافع من المجاملة لا بدافع من الغبطة والسرور، وعبثًا حاول القس في حديثه مع بيلي أن يجعله يدرك إدراكًا إلهيًّا أنه لا بد ميت عند الفجر... صحيح أن بيلي نفسه كان يشير في حديثه إلى قرب موته وأن موته قد أصبح دانيًا، ولكنه كان في هذه الإشارات أقرب إلى مفهوم الأطفال وحديثهم عن الموت بصفة عامة، فالأطفال في ألعابهم يلعبون لعبة الموت ويمثلون الجنازة بما فيها من عربة النعش والمشيعين.

ولكن ليس معنى ذا أن بيلي كان شأنه شأن الأطفال في عدم القدرة على إدراك مفهوم الموت وحقيقته بل على العكس كان بيلي خلوًا تمامًا من الخوف غير المنطقي منه؛ هذا الخوف الذي يسود في الجماعات المتمدينة الرفيعة أكثر مما يسود في الجماعات البدائية التي يسمونها متبربرة والتي هي أقرب من جميع الوجوه إلى الطبيعة النقية الخالصة. وبيلي في أصوله، وكما قيل من قبل في مكان آخر، متبربر؛ فهو في زيه يشبه من جميع الوجوه زي مواطنيه من الأسرى البريطانيين- وهم البقايا

الحية- الذين حملوا على المسير في موكب النصر الروماني للقائد الروماني جرمانيكوس- بل هو أشبه ما يكون بفصيلة أخرى أحدث من تلك من المتبربرين اختيروا من بين البريطانيين الأول الذين اعتنقوا المسيحية على الأقل اسميًا وكانوا على الأرجح من الشبان ثم حملوا إلى روما (كما يحمل اليوم معتنقو المسيحية من الجزائر الصغيرة في المحيط إلى لندن) والذين صاح البابا حينئذ في إعجاب بغرابة مظهرهم وجمالهم الشخصي الذي يختلف عن الطابع الإيطالي ونضرة وجوههم الحمراء وخصلات شعورهم الشقراء الملتفة: يا لهم من إنجل! (وهو يعني يا لهم من إنجليز وهو الاشتقاق الحديث) أتدعوهم إنجل؟ وهل تدعوهم بالإنجل[1] لأنهم يشبهون الملائكة؟ ولو أن هذه القصة وقعت في وقت متأخر لدار في الخلد أن البابا كان في ذهنه وهو يقول هذا القول صور السرافيم التي اشتهر بها الرسام «فرا أنجليكو» والتي رسم بعضها وهو يقتطف التفاح من حديقة التفاح الذهبي» (الهسبريدز)[2] وكانت قسمات وجهها وردية كقسمات وجوه الفتيات الإنجليزيات الحسان.

وإذا كانت محاولات القس الطيب في إقناع هذا الفتى المتبربر بفكرة الموت كتلك التي تنقلها الجمجمة والعظمتان المتقاطعتان والمزولة الموضوعة على شواهد القبور القديمة قد ذهبت أدراج الرياح، فقد ذهبت كل جهوده أيضًا بلا جدوى في محاولة تقريب معنى الخلاص

(١) هنا تلاعب بالألفاظ، فكلمة أنجل معناها بالإنجليزية المَلَك، وجمعها الملائكة، ومعناها الثاني: الإنجليز.

(٢) الهسبريدز في الأساطير الإغريقية حديقة كانت تنبت التفاح الذهبي جمع تفاحها جايا وقدمه مهرًا لعروسه حيرا، وكانت الحديقة تقع في أقصى الغرب.

والمخلص إلى ذهن الفتى البحار. لقد كان بيلي ينصت إلى كل ما يقوله له القس الصالح بدافع من الأدب الطبيعي أكثر منه بدافع من الرهبة أو الخشوع، ولا شك أنه كان في أعماقه ينظر إلى هذه الأقوال النظرة نفسها التي كان ينظرها معظم زملائه من البحارة ممن هم في طبقته حين يستمعون إلى حديث معنوي غامض يخرج عن نطاق عملهم اليومي، ومهما يكن من شيء فلم تكن الطريقة التي تلقى بها هذا البحار الفتى الأحاديث الكنسية التي صبت في مسامعه، بمختلفة في أي شيء عن الطريقة التي كان يتلقى بها رؤساء المتوحشين في المناطق الاستوائية منذ زمن بعيد دعاة المسيحية الأوائل الذين كانت تمتلئ صدورهم بقصص المعجزات الخارقة من أمثال متوحشي تاهيتي على عهد الكابتن كوك أو بعد هذا العهد بقليل- لقد كان بيلي يستمع إلى ما يلقى إليه بدافع من المجاملة ولكنه لم يكن ليقدر ما يقال حق قدره فكان أشبه في ذلك بالدرر الثمينة توضع في راحة مفتوحة لا تستطيع الأصابع أن تنقبض عليها.

ومهما يكن من أمر؛ فقد كان قس السفينة أندوميتابل رجلًا كتومًا فيه موهبة الفهم الصحيح المنبعثة من طيبة القلب، لذلك لم يصر في هذا الموقف على القيام بمهام وظيفته. ولما كان القس قد أنبأه أحد ضباط السفينة بتوجيه من القبطان ڤير بكل شيء تقريبًا عن بيلي وما وقع منه، ولما كان يشعر في أعماق نفسه أن البراءة عُدة قد تكون خيرًا من التدين يلقى المرء بها حسابه يوم الدينونة، فقد انسحب كارهًا لهذا الموقف، ولكن عواطفه لم تخل من انفعال لأنه قد أتى حدثًا غريبًا يندر أن يأتي به رجل بريطاني، وفي ظل الظروف القائمة يعتبر تصرفًا غريبًا قلما يأتيه قس

نظامي. ومع ذلك انحنى فوق الفتى الراقد وقبل خده الجميل باعتباره أخًا له في الإنسانية وإن يكن مجرمًا في نظر القانون العسكري.

وعلى الرغم من أن هذا الفتى الراقد كان يشرف على الموت لم يستطع القس أن يبث فيه الاعتقاد بالموت أو بأي شيء آخر. ورغم كل هذا لم يكن القس ليخشى عليه شيئًا فيما يستقبله من أحداث.

لا يأخذنك العجب أيها القارئ حين ترى أن القس الصالح وقد أحاط خبرًا ببراءة البحار الشاب (هذه ثورة فكرية إلحادية من الصعب كبحها) لم يحرك ساكنًا ليحول دون القضاء على مثل هذا الشهيد من شهداء النظام العسكري، وهو إن يفعل لا يكن فعله إلا كمن يستصرخ الصحراء لا جدوى من ورائه، ولكنه يكون في الوقت نفسه قد تحيف تحيفًا جريئًا على حدود وظيفته التي رسمها له القانون العسكري بالضبط كما رسم وظيفة حامل البوري أو أي ضابط آخر في البحرية. ولو أخذنا الأمور بظواهرها الواضحة نجد أن القس وهو رسول السلام يخدم في حاشية إله الحرب مارس، وهو بهذه الصورة يبدو في غير موضعه كمن يضع مدفع القائد بلوخر على مذبح الكنيسة يوم عيد الميلاد. وللمرء أن يتساءل لماذا هو في هذا المكان؟ ويقال إنه في هذا المكان أداة غير مباشرة لخدمة الأغراض التي أقرها القانون الكنسي، أو ليمنح بركة دين المتواضعين وتصديقه لأعمال هي في الواقع العملي إلغاء لكل شيء اللهم إلا القوة الوحشية.

لقد كان الليل مضيئًا على سطح السفينة العلوي المكشوف لأضواء القمر، وكان معتمًا في الأسطح المقفلة السفلى ذات الخلايا المتراصة بعضها فوق بعض في طبقات كطبقات مناجم الفحم المسورة.

هذا الليل المضيء لم يلبث أن اختفى ولكنه قبل اختفائه خلع رداءه الباهت على النهار الذي بدأ يشرق، تمامًا كما فعل النبي الذي كان يركب المعراج صاعدًا إلى السموات، فلما آن أن يختفي فيها ألقى بعباءته إلى أليشع. ومن الشرق بدأ ضوء خافت يشرق على استحياء من فوق غلالة شفافة من الدخان الأبيض ممتدة في هذا المكان. هذا الضوء الخافت أخذ يتزايد في بطء، وعلى حين فجأة دقت ثمانية أجراس من مؤخرة السفينة تلتها دقة عالية رنانة من المقدمة، وكانت الساعة حينئذ تؤذن الرابعة صباحًا، وفي الحال أطلقت الصفارات المعدنية لتستدعي كل البحارة ليشهدوا تنفيذ العقوبة، وعلى صوت هذه الصفارات اندفع البحارة الذين يحرسون الأسطح السفلية من خلال الفتحات الكبيرة المؤدية إلى السطح العلوي وانتشروا مع حراس السطح العلوي في المسافة ما بين السارية الوسطى والسارية الأمامية بما في ذلك المكان الذي يحتله اللنش الكبير والأعمدة الخشبية التي تحيط به من كل جانب، وكان القارب والأعمدة يستخدمان كقمم يتجمع فوقها صغار البحارة للمشاهدة، وثمة مجموعة أخرى مختلفة تتألف من حراس السارية العليا كانوا يطلون من فوق حاجز الشرفة العليا ليشهدوا هذا الزحام الذي يملأ السطح من تحتهم، ولم تكن هذه الشرفة صغيرة الحجم بل كانت كبيرة تتسع للكثير من البحارة. ومهما يكن من شيء فإن أحدًا من هؤلاء المشاهدين- رجلًا كان أو ولدًا- لم يسمع له صوت اللهم إلا الهمس، وأكثرهم لم ينبس ببنت شفة، وكان القبطان ڤير كالعهد به من قبل هو الشخصية البارزة التي تتوسط الضباط الرسميين الذين تجمعوا في هذه اللحظة ليشهدوا تنفيذ حكم الإعدام في

بيلي. وقد وقف القبطان ڤير بالقرب من حافة السطح العلوي الذي يعلو مكان التنفيذ متجهًا بوجهه إلى الأمام، ووقف البحارة على السطح من تحته مباشرة وهم في كامل عدتهم، وقد تجمعوا في عدد لا يقل عن عدد المشاهدين الذين وقفوا لمشاهدة التنفيذ في الأماكن الأخرى.

وقد كان الجاري عليه العمل في الأيام الخوالي أن تنفيذ حكم الإعدام شنقًا في البحر في أحد البحارة العسكريين يتم عادة في سطح السفينة الأمامي ولكنه في هذه المرة خولف العرف لأسباب خاصة وحدد السطح الرئيسي مكانًا للتنفيذ، وأحضر السجين تحت الحراسة من جانب السفينة المغلق يتبعه القس، ومما لوحظ وكان مثار التعليق بعد ذلك أن القس في هذا المشهد الأخير لم يبد المظاهر الروتينية المألوفة، بل على العكس كان شديد الاهتمام بالسجين، وقد تحدث إلى المتهم حديثًا قصيرًا، ولم يكن الكتاب المقدس على لسانه بقدر ما هو في حركاته وسكناته ومعاملته للسجين. وفي لحظات تمت كل الاستعدادات التي تخص السجين وحده بصفته الشخصية ودنت ساعة النهاية ووقف بيلي ووجهه إلى المؤخرة وكانت كلماته في اللحظة التي سبقت الخاتمة، كلماته الوحيدة التي فاه بها في غير تلعثم أو تردد: «حفظ الله القبطان ڤير»... كلمات لم يسبق أن تفوه بها إنسان مثله وهو في موقف الموت وحبل المشنقة الرهيب المزري بالكرامة والشرف حول رقبته؛ كلمات هي الدعاء التقليدي الذي يصدر عن المتهم ليختم بها حياته ويبارك بها أهل الشرف والكرامة، كلمات صدرت عن بيلي وكـأنها النغمات الحلوة لطائر غرد يترنم بها وهو على وشك مغادرة غصنه؛ كلمات كان لها وقعها في النفوس من حيث كونها

ظاهرة غير مألوفة، وقد زادها وقعًا في النفوس جمال الفتى البحار النادر الذي أصبح جمالًا روحانيًا بعد أن صقلت روحه المحن والتجارب الأخيرة المريرة العميقة التي مر بها أخيرًا.

وبحركة غير إرادية كأنما مس السفينة كلها تيار كهربي حمل بحارتها جميعًا على أن يرددوا في صوت جهير واحد من أعلى السفينة وأدناها كلمات بيلي الحانية: حفظ الله القبطان ڤير، رددوا هذه الكلمات ولكنهم حين رددوها كانوا يعنون بيلي الذي يملأ قلوبهم كما هو ملء عيونهم في هذه اللحظات. وعندما نطق بيلي بهذه الكلمات ورجَّع البحارة صداها في قوة ملأت المكان، كان القبطان ڤير واقفًا في صمود وقد تجمد في مكانه كأنه بندقية مثبتة في مكانها في حافظة الأسلحة، وقد ان جموده هذا إما بدافع من قوة ضبط النفس الرواقية، وإما نتيجة لشلل مؤقت أصيب به من أثر هذه الصدمة العاطفية.

وما إن استقر جسم السفينة واستعادت توازنها بعد هذه التنقلات من السطح المكشوف إلى السطح الجانبي المقبل حتى أعطيت الإشارة الأخيرة للتنفيذ، وهي إشارة صامتة اتفق عليها من قبل. وفي اللحظة التي بدأ فيها التنفيذ صادف انبثاق هالة من النور أطاحت بالغلالة الرقيقة الشفافة من الدخان الأبيض التي كانت معلقة في الأفق القريب من ناحية المشرق فتناثرت على نفس الصورة التي تناثرت بها شعيرات الحمل في الرؤيا الصوفية[1]، وقد شاهد هذين المنظرين معًا وفي وقت واحد

(١) رؤيا يوحنا اللاهوتي.

البحارة المجتمعون على سطح السفينة والمتجهون بأنظارهم إلى السماء، وارتفع حبل المشنقة وصعدت معه روح بيلي إلى الرفيق الأعلى وهو في صعوده جللت وجهه أنوار الفجر الوردية.

وسقط الجسم المشنوق في آخر السطح، ولكنه حين وصل إلى الأرض لم يبد حراكًا مما أثار دهشة الجميع!! والواقع أن حركة ما لم تظهر فيه اللهم إلا الحركة التي يحدثها سير السفينة وهي في الجو المعتدل؛ حركة هائلة لا سيما في سفينة ضخمة مثقلة بالمدافع.

U U U

شـــرود

وبعد أيام من هذا الحادث جرى حديث بشأن هذه الظاهرة المتفردة التي ذكرناها وهي سقوط جسم بيلي بعد شنقه بلا حراك إطلاقًا، إذ قال كاتب حسابات السفينة في ذات يوم في منتدى الضباط، وهو رجل مكور الشكل أحمر الوجه أكثر دقة في إمساك الحسابات منه عمقًا في الفلسفة، محاورًا طبيب السفينة: «ما هو الدليل المثبت للقوة التي تصاحب قوة الإرادة؟» فأجاب الطبيب- وهو رجل طويل نحيل مقفل أميل إلى السخرية الملفوفة في ثوب من الأدب والتي لا تنم عن روح مرحة-: «إذا سمحت لي يا سيدي المحاسب فأذن لي أن أقول لك إنه في حالات الشنق التي تجرى على أسس علمية كما في حالة بيلي بد، فقد أعطيت بنفسي الأوامر الخاصة بالطريقة التي تجرى بها العملية، فإن أية حركة تلي عملية الشنق الكاملة وتنبعث في الجسم المشنوق يكون مردها تقلصات آلية في الجهاز العضلي، ومن ثم فانعدام هذه الحركات في الجسد لا يمكن أن يعزى إلى قوة الإرادة كما تسميها أنت أكثر منه إلى القوة الآلية، وأستميحك المعذرة في هذا القول».

- ولكن هذه التقلصات العضلية التي أشرت إليها أليست كلها على درجة واحدة لا تختلف في جميع الحالات مهما تكن ظواهرها قوة وضعفًا؟

- هذا هو الواقع بكل تأكيد يا سيدي المحاسب.

- كيف يمكن إذن أن تعلل انعدامها في هذه الحالة بالذات يا سيدي؟

- واضح جدًا يا سيدي المحاسب أن إحساسك بالتفرد في هذه المسألة بالذات يختلف عن إحساسي بها، وأنت تعللها يا سيدي بما تسميه قوة الإرادة، وهو اصطلاح لا يتضمنه معجم العلم. أما عن تعليلي لهذا الحادث فأستطيع أن أقول إني بمعلوماتي لا أستطيع أن أدعي أني قادر على تعليلها إطلاقًا. ومع ذلك لو افترضنا أن حركة القلب عند بيلي قد توقفت بغتة عند وضع حبل المشنقة في عنقه نتيجة لأزمة عاطفية غير عادية بلغت منتهى توترها فسكن القلب كما يسكن رقاص الساعة عندما نملؤها بغير عناية ثم نضغط عليها عند النهاية فنكسر الزنبرك... حتى على هذا الفرض كيف يمكن أن نعلل الظاهرة التي تلت ذلك؟

- أنت تسلم معي إذن بأن انعدام التقلصات العضلية كان ظاهرة تستوقف النظر؟

- نعم. كان ظاهرة يا سيدي المحاسب بمعنى أنه ظهرت مظاهر لا يمكن الحكم على سببها مباشرة ولا تحديده.

واستطرد المحاسب في شيء من الإصرار: «ولكن قل لي يا سيدي العزيز أحدثت الوفاة نتيجة للشنق أم هي ضرب من ضروب

الأيوثنازيا[1]؟».

«الأيوثنازيا يا سيدي المحاسب مثل قوة الإرادة التي زعمتها، وأنا أشك في صحتها كاصطلاح علمي، وأستميحك المعذرة مرة أخرى، إنها أمر خيالي أو ميتافيزيقي، بل باختصار هو تعبير إغريقي». وفجأة غير لهجته ثم قال: «إن هناك حادثة في عنبر المرضى لا أحب أن أدعها لمساعدي فأستميحك المعذرة وبعد إذنك».

وعلى الأثر همّ واقفًا وخرج من المنتدى.

U U U

لقد ساد الصمت الرهيب في السفينة لحظة التنفيذ واستمر بعد التنفيذ لحظة أو لحظتين أخريين، وقد قوي هذا الصمت وزاده رهبة صوت الأمواج وهي ترتطم كالعادة بجسم السفينة أو رفيف الأشرعة الناجم عن تعلق نظر قائد محرك السفينة بشيء آخر جذب انتباهه في الأفق البعيد.. هذا الصمت المخيم لم يلبث أن عكر صفوه صوت ما من العسير أن نرجعه إلى شقشقة باللسان، هذا الصوت لا يمكن أن يدرك مفهومه حق الإدراك إلا من قدر له أن يستمع إلى أصوات الموجة العارمة الفياضة لمجرى في أعالي الجبال الاستوائية فاض ماؤه وطم فجأة بفضل سيول الأمطار الساقطة فوق قمم هذه الجبال دون السهول.. صوت لا يدرك كنهه إلا الذين قدر لهم أن يستمعوا إلى جلجلة هذه السيول المكبوتة وهي تندفع فتشق طريقها فوق المنحدر إلى الغابات في المساقط وقد

(١) الموت تخلصًا من الألم والعذاب.

كان هذا الصوت يبدو كأنه صادر من مكان سحيق، ومرد ذلك إلى عدم وضوح جرسه رغم انبعاثه من مكان دان من صفوف البحارة المتجمعين فوق سطح السفينة المكشوف. وقد كان مغزى هذه الجلجلة مشكوكًا فيه اللهم إلا أن تكون فيما يبدو رد فعل عارض لفكرة أو شعور خالج صفوف البحارة كذلك الذي يحدث في صفوف الجماهير على الأرض. ومهما يكن من شيء فمن المحتمل أنه ينطوي في ظرفنا الراهن على نوع من الاحتجاج المكبوت من جانب البحارة على الدور الذي قاموا به عندما رددوا لا إراديًّا كلمات الدعاء التي فاه بها بيلي وهو يصعد إلى المشنقة... وعلى أيٍّ وقبل أن تتحول هذه الجلجلة إلى جلبة ويزداد انتشارها صدرت الأوامر لمواجهتها بعمل استراتيجي حازم من جانب القبطان، الأمر الذي يدل على أنها جاءت مفاجئة في غير توقع، إذ على الفور قال القبطان للضابط المنوب:

«انفخ في الأبواق وأعلن حراس الجانب الأيمن من السفينة أن يعودوا إلى أماكنهم وراقب تنفيذهم لهذا الأمر».

وانطلقت صفارات الضابط المنوب وجماعته صارخة كأنها ولولة صقر البحر، فغطت على هذه الهمهمة المنذرة بالسوء وبددتها، وانصاعت الجموع بداعي النظام، وانفرط نصف عقدها على الأقل. أما النصف الباقي فقد عهد إلى أكثره بخدمات مؤقتة تتصل بتنسيق أسطح السفينة وإلى غير ذلك من الأعمال التي يستطيع أي ضابط بحري في مثل هذه المناسبات أن يخلقها ليشغل بها رجاله.

والواقع أن كل الإجراءات التي تلي صدور حكم بالإعدام من محكمة

عسكرية مؤقتة في البحر تتميز بالحسم والمبادرة التي لا تتسم بالعجلة وإن بلغت حدودها، ومن ثم فقد حول السرير المعلق الذي كان ينام عليه بيلي في حياته إلى تابوت يوضع فيه بعد موته بعد ملئه بالرصاص وغيره من المواد الثقيلة، وقد أنهيت هذه المهمة بسرعة، أنهاها حانوتية البحر وهم رجال صانع القلاع. وعندما اتخذت الأهبة لكل شيء في مراسم الدفن دعي البحارة جميعًا مرة ثانية ولنفس الأسباب الاستراتيجية التي سبق ذكرها ليشهدوا عملية الدفن.

على أن تفاصيل عملية الدفن التي اختتم بها هذا المشهد لا يستدعي المقام ذكرها، غير أن ما ينبغي الإشارة إليه أنه ما كادت الزلاقة تدفع بالتابوت إلى البحر حتى سمعت همهمة بشرية غريبة للمرة الثانية ولكنها اختلطت هذه المرة بأصوات غير منطوقة صدرت عن جماعة من طيور البحر الكبيرة استرعى انتباهها الحركة الغريبة التي حدثت في الماء نتيجة لغوص السرير المثقل بالرصاص في الماء، فجاءت طائرة إلى هذا الموضع وهي تصرخ، واقتربت طيور البحر وهي تحوم حول مكان النعش من جسم السفينة إلى حد أن ضربات ورفيف أجنحتها النحيلة كانت مسموعة على ظهر السفينة. ومضت السفينة في طريقها في ريح رخاء تاركة خلفها مكان الدفن، ومع ذلك ظلت طيور البحر تلاحقها وتحوم حولها في الماء وقد امتدت ظلال أجنحتها المنشورة في حركة دائبة وارتفعت صرخاتها الحزينة كأنها ترانيم قداس الموت.

والواقع أن هذه الظاهرة مع بحارة يؤمنون بالفأل كأولئك البحارة الذين عاشوا في العصر السابق على عصرنا، بل مع بحارة في سفينة حربية

انتهوا لتوهم من مشاهدة نذير الموت وهو يجثم في الهواء على رقبة زميل لهم فيقضي نحبه مشنوقًا، وهو الآن ملقى في أعماق البحر، هذه الظاهرة التي أحدثتها طيور البحر ظاهرة خطيرة عند أمثال هؤلاء البحارة، فهي وإن تكن في الحقيقة قد أملتها على طيور البحر أطماعها ورغبتها في الحصول على الفريسة إلا أن مغزاها مهما يكن من أمر ليس أمرًا عاديًا في نفوس هؤلاء البحارة وقد بدأت بالفعل تجري في صفوفهم حركة غير محددة حدث فيها بعض التحيف والعدوان وقد غض الطرف عن آثارها لحظات ولكن لم تلبث الطبول أن دقت تستدعي البحارة لحمل السلاح. وهذه الدقات مألوفة لآذان البحارة، فهم يسمعونها عادة مرتين كل يوم على الأقل، ولكنها في هذه المناسبة الراهنة كانت تحمل سمات المبادأة لمواجهة أمر من الأمور بحزم البدار.

ولا مرية أن النظام العسكري بطول الممارسة يكون في الرجل العادي نوعًا من الوازع يحفزه على الانقياد والامتثال، وأثر هذا الوازع عمليًا عند سماع صوت الأوامر الرسمية يشبه في وقته أثر الأفعال الغريزية، ومن ثم فإن دقات الطبول حلت عقدة هذا الجمع وفرقت معظمه على سطوح المدافع المقفلة على طول صفوف البطاريات، وهناك وقف بحارة المدفعية إلى جانب مدافعهم منتصبي القامة صامتين كعادتهم، ووفق المألوف أيضًا وقف الضابط الأول في مكانه من السطح وقد تأبط سيفه وأخذ يتلقى بصفة رسمية التقارير المتتابعة التي يلقيها إليه مساعدوه من الضباط شاهري السلاح الذين يرأسون أقسام البطاريات في الأسطح السفلى، ولما انتهى من تلقي التقرير الأخير قدم ملخصًا بهذه التقارير

مع التحية العسكرية المألوفة إلى القبطان، كل هذه العمليات شغلت وقتًا طويلًا كان المقصود شغله في هذه المناسبة بالذات، ولذلك دقت الطبول قبل موعدها المألوف بساعة، ومثل هذا الخروج على المألوف قد أمر به القبطان ڤير على الرغم من أنه شديد المحافظة على النظام العسكري كما يصفه البعض، وهذا دليل على أن الحاجة كانت ماسة إلى اتخاذ مثل هذا التدبير غير المألوف، وهذه الحاجة قد أحسها هو فيما انطوى عليه تصرف بحارته وما انحرف إليه سلوكهم بصفة مؤقتة، وقد كان القبطان ڤير دائب القول: «إنه في معاملة بني الإنسان ينبغي العناية كل العناية بسلوك الإنسان وقياس هذا السلوك؛ إذ قياس السلوك هو كل شيء. وهذا هو المغزى الذي نخرج به من قصة أورفيوس الذي استطاع بقيثارته السحرية أن يخضع سكان الغابات المتوحشين» وقد طبق القبطان ڤير نفسه هذه النظرية فيما حدث على ظهر سفينته من مظاهر الانحراف والانحلال في سلوك بحارتها أثناء عبورها القناة وما تلا هذا الانحلال من نتائج.

ومهما يكن من أمر فقد تمت عملية الاستدعاء غير المألوفة للبحارة إلى أماكنهم كأنما جاءت في موعدها المألوف بالضبط، وقد عزفت الفرقة الموسيقية ألحانًا للذكرى بدأ بعدها القس صلاة الصباح المعتادة، وما إن انتهى منها حتى دقت الطبول نوبة الانصراف. وعلى نغمات الموسيقى وفي جو من الطقوس الدينية اللتين طوعتا البحارة للنظام وخدمتا أغراض الحرب تفرق رجال البحر بطريقة منظمة كالمعتاد كل إلى مكانه المحدد له في غير ساعات العمل بالمدفعية.

وفي هذه اللحظات كان النهار قد اكتمل ضياؤه، واختفت من الأفق

غلالة الدخان المعلقة في الفضاء القريب، لعقتها الشمس بعد أن سطع ضياؤها وأنار الكون، وكان الجو المحيط بالمكان في بريق ضيائه وصفاء نوره كأنه المرمر المصقول الناصع البياض لما ينقل بعد من مخازن صانع الرخام.

إن التناسق في المحتوى الذي يسهل تحقيقه في القصة الخالصة لا يمكن بلوغه في الرواية التي لا تمت بصلة إلى الأساطير، وإنما تستمد مادتها من الحقيقة المجردة؛ ذلك أن الحقيقة التي تروى دون تزويق أو تنميق لا بد أن تظل دائمًا مهلهلة الأطراف، ومن ثم فنهاية مثل هذه الرواية أميل إلى أن تكون أقل حبكة وتناسقًا من نهاية أي عمل معماري فني.

لقد رويت في صدق وإخلاص ما حاق بالبحار الوسيم خلال عام الثورة الكبرى، ولكن إذا كانت القصة قد انتهت بالإيداء بحياته كما وقع بالضبط، فإن هناك ما يعد مكملًا لهذه القصة، ومن ثم لا نرى أن نغفله وسنذكره في إيجاز يكفيه ثلاث فقرات:

في التغيير العام الذي أحدثته إدارة البحرية في أسماء البوارج البحرية- وهي الإدارة التي كانت معروفة من قبل بالبحرية الملكية الفرنسية- أبدل باسم السفينة الحربية «القديس لويس» اسم «الكافر» وهذا الاسم كغيره من الأسماء التي استبدلت في أسطول الثورة وإن دل على الجرأة في المجاهرة بالكفر من جانب القوة الحاكمة فهو في واقع الحال لو تدبرناه أنسب اسم يطلق على سفينة حربية، وإن كان هذا أبعد ما يكون عن تفكير الذين خلعوه عليها؛ فهو أنسب من «الدمار» ومن «الجحيم» وغيرهما من الأسماء المشابهة التي تسمى بها عادة هذه السفن المحاربة.

وفي طريق العودة للحاق بالأسطول الإنجليزي بعد هذه الرحلة المنفردة التي وقعت فيها حوادث هذه القصة التحمت الأندوميتابل بالسفينة الحربية الفرنسية «الكافر» ووقعت بينهما على الأثر معركة حاول أثناءها القبطان ڤير محاذاة السفينة الفرنسية ليمكن بحارته من الاندفاع فوقها إلا أنه أصيب أثناء المحاولة بقذيفة مرقت من إحدى فتحات المقصورة الرئيسية في سفينة الأعداء فسقط لا حراك به وأصبح مشلولًا لا يقدر على عمل، فحمل إلى أسفل السفينة ليرقد إلى جانب بحارته الذين سبقوه في عنبر الجرحى. وتولى القيادة مكانه أكبر الضباط رتبة، وتحت إمرته هزم العدو وأسر، وعلى الرغم مما أصيبت به سفينته من عجز فقد استطاع بفلتة من فلتات الحظ النادرة أن يصل بها بسلام إلى جبل طارق وهو ميناء إنجليزي قريب من مكان المعركة، وهناك أنزل القبطان ڤير هو والجرحى الآخرون من بحارة السفينة وقد لبث في جبل طارق بضعة أيام ثم حانت منيته. وكان من سوء حظه أن عاجلته المنية مبكرة قبل أن يتمكن من الاشتراك في معركة النيل والطرف الأغر.

وعلى أي، فهذه الروح التي كانت على الرغم من نزعتها الفلسفية المتقشفة تراودها وتتسلط عليها أشد النزعات الإنسانية تكتمًا ألا وهي الطموح، هذه الروح المتقشفة الطامحة لم تستطع أن تبلغ غاية المجد ولا قمة الشهرة.

ومما يروى أن القبطان ڤير قبيل أن يسلم النفس الأخير بلحظات، وهو لم يزل مستلقيًا في غيبوبة تحت تأثير المخدر السحري الذي يلطف آلام البدن ويفعل فعله العجيب في الروح الخفية للإنسان، قد سمع يردد

كلمات غاب فهم مرماها على تابعه، ولم تكن تلك الكلمات إلا ترديدًا لاسم «بيلي بد» أما أن هذه الكلمات لم تكن كلمات الندم وعذاب الضمير فإيضاحه فيما نقله التابع لرئيس البحارة الذي كان أكثر أعضاء المحكمة العسكرية المؤقتة ترددًا في توقيع الحكم على البحار الرشيق والذي كان دون غيره يعلم مجريات الأمور ويعرف حق المعرفة من هو بيلي بد ولكنه آثر أن يحتفظ بمعلوماته لنفسه ويبقيها في طي الكتمان.

U U U

وبعد بضعة أسابيع من تنفيذ حكم الإعدام ظهرت في صحيفة «أنباء البحرية»- وهي نشرة رسمية أسبوعية كانت تصدر في ذلك الوقت تحت عنوان «أنباء من البحر الأبيض المتوسط»- عدة أخبار من بينها تفاصيل هذا الحادث. ولا مشاحة في أن ما كتب في هذه النشرة قد كتب معظمه بنية صادقة وإن تكن الوسيلة التي اعتمد فيها على تحري الأنباء كانت في بعض الأجزاء «الإشاعات». والإشاعات دائمًا تضلل الحقيقة وتمسح بعض أجزائها وتشوهه، على أن الخبر قد نشر في الصحيفة على الوجه الآتي:

«في العاشر من الشهر المنصرم وقع حادث محزن يؤسف له على ظهر إحدى سفن بحرية جلالة الملك «الأندوميتابل» فقد اكتشف مدرب السلاح في السفينة جون كلاجارت أن هناك مؤامرة تدبر في الصفوف الدنيا من السفينة بين بعض البحارة، وأن زعيم هؤلاء المتآمرين بحار يدعى «وليم بد» وبينما هو يقود البحار المتهم ليمثل أمام القبطان ليسأله عن جريمته طعنه بيلي بد طعنة انتقامية بخنجر استله فجأة وسدده إلى قلبه.

وكلا العمل الانتقامي والأداة التي استخدمت في القتل يدلان بوضوح على أن القاتل وإن جند في البحرية تحت اسم إنجليزي، فهو ليس إنجليزيًا، بل هو من أولئك الأغراب الذين ينتحلون أسماء أسر إنجليزية، والذين قضت ظروف الخدمة غير العادية في البحرية ضم جماعات ضخمة منهم.

على أن فظاعة الجرم وخسة المجرم لتزدادان جسامة بالقياس إلى شخصية الضحية؛ فهو رجل متوسط العمر، محترم، كتوم، من الطبقة الثانية لضباط السفينة، من جماعة صف الضباط الذين تعتمد كفاية بحرية جلالة الملك على جهودهم كما يشهد بذلك ضباط السفينة الرسميون. وقد كان كلاجارت يشغل وظيفة ذات مسئولية تضع على كاهله أعباء جسيمة دون أن يلاقي ما يستحقه جهده من حمد أو ثناء، وكان يؤدي وظيفته في إخلاص مثالي يزيده تفانيًا فيه ما أشرب به قلبه من وطنية وحب لبلاده. على أن شخصية هذا القتيل المنكود الحظ لتقف في هذه الحادثة كما تقف شخصية غيره من أمثاله من الحوادث التي تمر بنا في هذه الأيام برهانًا فريدًا ينقض الرأي الفطين- المنسوب للدكتور جونسون- إن كان مثل هذا الرأي في حاجة إلى نقض من «أن الوطنية هي الملاذ الأخير للأنذال والمجرمين».

ومهما يكن من شيء فقد دفع المجرم ثمن جريمته وأوقع به الجزاء الحق وأثبت حزم البدار في تنفيذ العقوبة أنه كان في موضعه، إذ أدى إلى نتائج مرضية فقد اختفى كل مظهر من مظاهر القلق أو توقع الشر وسكنت الأمور وجرت في مجراها الطبيعي فوق ظهر السفينة أندوميتابل.

هذا التقرير عن الحادثة الذي نشر في صحيفة الأنباء التي عفى عليها الدهر منذ زمن طويل وأصبحت نسيًا منسيًّا هو كل ما بقي في سجل البشرية ليدل على أي نوع من الرجال كان كلاجارت وأي نوع آخر كان بيلي بد.

U U U

إن كل شيء يقع في البحرية يظل فترة من الزمن ملحوظًا تلاحقه الأعين وتردده الألسن، وكل شيء محسوس يتصل اتصالًا وثيقًا بحادثة من الحوادث البارزة المثيرة إبان الخدمة يحوله البحارة إلى نصب أو أثر... وهذا ما حدث للعمود الذي شنق عليه حارس السارية العليا فقد تتبعه البحارة مقتفين أثره أينما ذهب وظلوا على هذه الحال بضع سنوات وانتقلت قصته من السفينة إلى المرفأ، ثم من المرفأ إلى السفينة حتى بات معروفًا عند الجميع يتابعونه في كل مكان. وقد استمرت هذه المتابعة حتى حين استحال هذا العمود إلى مجرد قطعة حديد في الميناء.. وكانت أي سلخة منه في مقام الصليب عندهم قداسةً ومكانةً. على أنهم رغم جهلهم بالحقائق الخفية لهذه المأساة، ورغم اعتقادهم بأن إنزال هذه العقوبة ببيلي بد كان أمرًا لا مناص منه من وجهة نظر البحرية كانوا لنفس هذه الأسباب مجتمعة يشعرون في قرارة نفوسهم شعورًا غريزيًا أن بيلي كان طرازًا من الرجال لا يمكن أن يركن إلى الثورة، بل ولا يمكن أن يرتكب جريمة قتل عن عمد وإصرار- وكانوا وهم في تفكيرهم هذا يستعيدون صورة هذا البحار الرشيق في فتوته ونضرة شبابه التي كانت تترقرق في وجه لم تشبه يومًا ما شائبة من زراية أو سخط أو تشوهه مشاعر خفية تنضح من قلب

يضمر الشر. هذه الانطباعات في نفوسهم قد زادها عمقًا أن الفتى ذهب إلى الأبد وذهب بطريقة غريبة غامضة. والحق أن هذا التقدير لشخصية البحار الراحل وطبيعته البسيطة قد وجد فوق عنبر المدافع من يصوره تصويرًا صادقًا وإن خلا من الصنعة والصقل. وكان هذا المترجم لمشاعر بيلي بد بحارًا من زملائه حراس السارية الذين كانوا يشاركونه في نوبة الحراسة. كان من هؤلاء البحارة الموهوبين الذين لهم مزاج شعري وإن كان غير فني الصقل. لقد خطت يد هذا البحار بعض أبيات من الشعر تناقلتها ألسن البحارة فوق ظهر السفينة ردحًا من الزمن ثم أتيح لها أخيرًا أن تطبع طباعة خشنة في «بورتسموث» وأن تتداول كأغنية، وكان العنوان الذي أعطى لهذه الأغنية هو العنوان نفسه الذي وضعه لها مؤلفها البحار وهو:

بيلي في الأغلال

حسنًا فعل القس بدخوله إلى هذا الخليج المنعزل
وركوعه على ركبتيه في هذا المكان ليصلي من أجل
هذا الفتى الذي يشبهني تمام الشبه بيلي بد
لقد تسللت أشعة القمر من خلال فجوة في السفينة
وانعكست على سيف الحارس وجللت بالفضة هذه البقعة المنعزلة
ولكن هذه الأشعة سوف تختفي وتزول في فجر اليوم الأخير لبيلي.
سيجعلون مني غدًا جوهرة معلقة فوق المشنقة
لؤلؤة مدلاة من فوق عمود السارية
أشبه ما تكون بالقرط المتدلي من الأذن

كذلك الذي أهديته لمولى في برستول
أواه، إنه أنا الذي سأعلق لا الحكم
أجل، أجل، لقد انتهى كل شيء ولا بد أن أنتهي
أنا الآخر
سيطوقني الحبل غدًا في الصباح الباكر ويحملني من أسفل
إلى أعلى
إنني الآن خاوي المعدة وما أ ظنهم سيعلقونني وأنا جائع
لا بد أنهم سيعطونني لقيمات: قطعة من البسكويت على الأقل
ولا بد أن أحد الزملاء سيقدم لي شربة «الوداع الأخير»
وإذا صرفنا النظر عن رافعات وناشرات الأشرعة
فلا أحد يعلم إلا الله من ذلك الذي سيرفعني إلى المشنقة
ما من بوق سيدوّي لمثل هذه الحبال الرافعة
ولكن أليس كل هذا خداعًا وتضليلًا؟!
إن عينيّ غامتا ولم تعودا تبصران
إن كل ما أرى ليس إلا أضغاث أحلام
لقد قطعت الفأس حبالي
وأصبح كل شيء يجري على غير هدى تحت رحمة الأمواج
إيه، إنها دقات الطبول تدعونا للاجتماع
وبيلي لا يدري
لقد وعد دونالد أن يقف إلى جانب الزلاقة

ومن ثم ستتاح لي الفرصة أن أصافح يد صديق قبل أن
أغوص إلى الأعماق
ولكن كيف يتسنى لي ذلك وأنا سأكون عندئذ ميتًا
لا حراك بي؟!
فلأفكر قليلًا في الموقف، إن الذاكرة لتعود بي إلى يوم
رأيت «تاف» الغالي[1] وهو يغوص في الماء
لقد كان خداه متوردين كأنهما براعم القرنفل
أما أنا فسيدفنونني في داخل سريري وقد أثقلوني لأغوص
إلى الأعماق
سيقذفون بي إلى أعماق سحيقة بعيدة الغور
وهناك سأحلم أنني أغط في نوم عميق
إني أحس الآن النوم يسرقني. أيها الديدبان الحارس
أأنت هنا لتحرسني؟
خفف وطأة هذه الأصفاد عن معصمي وادفعني برفق
فأنا غارق في النوم والأعشاب الموحلة المنتشرة حولي
تكاد تلفني

١٩ من أبريل سنة ١٨٩١

(١) الغالي نسبة إلى ويلز.